

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى، وصلواته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه.

سبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدك، لا أحصى ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، فاشكر نفسك عني كما أنت أهله، (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [الأنفال: ١٠]، (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [المائدة: ١١٨].

السلام عليكم، إخواني الملازمين لعهدي، وأولادي الأعزة على وعندي، الذين منحهم الله له فيه خالص ودّي بحب الله، قدس الله أرواحكم، وطهر أشباحكم، وجعل له فيه إليه، غدوكم ورواحكم.

اعلموا أني إنما أردتكم لكم، لا لي، فلأجل ذلك لم أشغلكم بعلم الأقوال الحاصل لا بالأحوال؛ إذ لا يكاد ينجو منه أحد في هذا الزمان خصوصاً، لا تتحل به الأغلال، ولا تتفك به الأنكال، وصحبته مقصورة على مدة الإمهال، وربما ازداد متعلموه به اليوم شغلاً بالعلائق والآمال، بحكم العادة في الوقت وأهله، لا بحكم العلم وأصله، كل ذلك مني رغبة لكم بالعلم الذي لا يتعلم من الطروس، ولا يُتلقن باللفظ المحسوس، الذي يصحب العالم في حياته وبعد وفاته، كما أشار إليه التنزيل بقوله سبحانه: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ) [البقرة: ٢٨٢]، وقوله سبحانه: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) [العنكبوت: ٦٩]، وقوله: (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) [محمد: ١٧]، وقوله: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا) [الطلاق: ٢]، أي: من كل هم ومكروه في الدارين، (وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) [الطلاق: ٣]، يريد في العالمين، فالرزق المحسوس للجسوم، والرزق المعنوي للأرواح العلوم، فهذا العلم طريق تعلمه التقوى، التي هي وصية الله لنا، ولمن قبلنا، كما قال سبحانه: (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ) [النساء: ١٣١].

جاء في التوراة: «يا بني إسرائيل لا تقولوا العلم في السماء من ينزل به، ولا في تخوم الأرض من يصعد به، ولا من وراء البحار، من يأتي به، العلم مجعول في قلوبكم، تأدبوا إليّ بأداب الروحانيين، وتخلقوا بأخلاق النبيين، أظهر العلم من قلوبكم حتى يغطيكم ويغمركم»، وفيها: «ابن آدم صمتك عن الباطل صوم، وكفك عن الشر صدقة، ويأسك من الخلق صلاة، وردك هوى نفسك جهاد، وحفظك لجوارحك عبادة».

ومصدق ذلك من التنزيل قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) [المنافقون: ٩]، وقوله تعالى: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا) [الكهف: ٤٦]، وقوله تعالى: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) [طه: ١٤]، وما ينحو منحى ذلك.

ومن السنة قوله ﷺ: «إنما شعرت المشاعر وجعلت المناسك لإقامة ذكر الله»، فذكر الله المشار إليه: الحضور الذي هو ضد الغفلة، لا ذكر اللسان؛ فهو ثمرة كل القلب، وبه تطمئن القلوب، وإذا اطمأنت القلوب؛ خوطبت بالرضى، وهو المطلوب (يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ \* ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً) [الفجر: ٢٧، ٢٨]، (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) [البينة: ٨]، فلأجل ذلك جعلت الإقبال عليكم غالب شغلي، وأثرتكم بذلك على نفسي وأهلي، رجاء أن يكون أكثركم بمشيئة الله محط ناقتي ورحلي، لا لأجلكم ولا لأجلي، بل لما اقتضته أخوة الإيمان، والأسوة بالرسول الصادق خليل الله الرحمن، وإنسان الإنسان، الحبيب الذي كان خلقه القرآن، الموصوف في الكتاب الكريم بـ (عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) [التوبة: ١٢٨].

فَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكُرُهُ فَظَنُّ خَيْرًا وَلَا تَسْأَلُ عَنِ الْخَبَرِ

وإن كثيراً منكم لو أمدّه الله ﷻ بالهداية للتسليم بلا تمييز، واحتمل المشقة في سجن امرأة العزيز؛ لجاءه أمر الله بصدقها وإسلامها، وجاءت أباه الريح بأعلامها، وألقى البشير القميص على وجهه فارتد بصيراً، بعد أن يصبح على مصره وأهله

أميرًا، وقد كان أولاً أسيرًا، ولكن قلَّ من لا يُطالب أولاً بالدليل والعلامة، ومن يصبر على السير في ظلمات الإمامة، التي هي أنوار القيامة، وقال عليه السلام: «بَشِيرِ الْمَشَانِينَ إِلَى الْمَسَاجِدِ فِي الظُّلَمِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»؛ فإن الصديقية النفيسة شأنها خطير، ومرتها عسير، قال عليه السلام: «ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكنه [بشيء] وقر في صدره» فالصديق من صدق لا بالمعجزة ولا بالبرهان، ومن كان تصديقه بالدليل، فهو مسلم ليس من أهل الإيمان (قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا) [الحجرات: ١٤]، فهو سالك بنفسه لا بمصحوبه، وتابع لعلمه لا لمطلوبه، ولذلك قالت الطائفة عليهم السلام: من قال لأستاذه: لِمَ؟ لا يفلح أبدًا؛ لأنه لم يخرج عن علمه، ولم يسر إلا على رسمه؛ ومن قال لمصحوبه: إلى أين؟ خُرِمَتْ صُحْبَتُهُ، والحرام هو الممنوع، أي انقطعت؛ إذ هو لا يمشي إلا بكشف الغطاء، ومن كان كذلك فهو قصير الخطأ، يحتاج لكل نفس علاجًا مستجدًا، وإظهار العلامة، كما قال عليه السلام: «أَطْوَلُكُمْ شَبَعًا فِي الدُّنْيَا؛ أَطْوَلُكُمْ جُوعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وذلك لأنه لم يبلغ رتبة الإيمان، ولا حصل على مشاهدة العيان، بل أبدًا يطالب بالدليل والبرهان، ولو سلك مؤمنًا لتحقيق بإيمانه في مقام الإحسان، فجمع الله له بين الهجرة والنصرة.

قالت أم أنس: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْصِنِي. قَالَ: «اهْجُرِي الْمَعَاصِيَ فَإِنَّهَا أَفْضَلُ الْهَجْرَةِ، وَحَافِظِي عَلَى الْفَرَائِضِ فَإِنَّهَا أَفْضَلُ الْجِهَادِ، وَأَكْثَرِي مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ، فَإِنَّكَ لَا تَأْتِي اللَّهَ بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ كَثْرَةِ ذِكْرِهِ».

وقال سبحانه: (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ) [محمد: ٧]، وقال: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بَنِيَانٌ مَرْصُوصًا) [الصف: ٤]، وليس كذلك أهل الإسلام بالدلائل والبرهان، فإنهم لم يحصلوا على الإيمان بالغيب ولا على الهجرة، لأنهم قد شهدوا بوجوب الفرار إلى الله تعالى؛ فإن فعلوه نجوا بلا ريب، وإلا فَيُخْشَى أَنْ يَحِقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

قال عليه السلام: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ»، وقال سبحانه: (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلٌ أُولَئِكَ أَطْعَمُوا دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتِلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ

**الحُسْنَى** [الحديد: ١٠]، وليس بعد المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، غير الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً من أهل الإيمان؛ إلا أهل الضلال والخسران، أو أهل المضادة والكفران، أو السابقين لهم بإحسان، أولي الأيدي والأبصار، وهم قسمان: **أحدهما**: الأنبياء والرسل عليهم أفضل الصلاة وأتم السلام، وقد انسد ذلك الباب بلبنة التمام، عليه أتم الصلاة والسلام، **والثاني**: رجال الله الغرباء الجهنميون؛ عتقوا من النار، الذين يستضيء بنورهم أهل الغرفات في الجنات، يعرفون فيكشفون ولا يُكشَفون، أولئك قوم اعتنى الله بهم في الأزل؛ فأعطاهم معرفته قبل السلوك، وهم في بحور الجهالة على سفن البطالة، ثم هداهم إليه به، فساروا منه به، معه إليه، عنه عليه، له فيه، على بصيرة، على غير سيرة أكثر الخلق ولا غيرية، إذ ليسوا بموقوفين على غير، فلا يرقى إليهم الضير و[لا ينو] منهم الخير، قد برؤا إلى الله سبحانه من كل صاحب غيره ولغيره، وتحصنوا به من نفعه وغيره، وغابوا به عما سواه، فهم متصورون بكل صورة، ومتسورون على كل سورة، وليس بكامل من لم يجتمع فيه؛ ما تفرق في الكُمل قبله ولا قبلينه، ولا يكمل بالله الله من يرى التكميل فعله، وبالجملة، فما ظنك بسالك بدايته المعرفة التي هي نهاية السالكين، وزبدة ثمرة نُسك الناسكين.

فلا جرم استخرتُ الله سبحانه في حثكم على التعلم والتعليم، رجاء أن يعود عليكم بركة العلم النافع بمشيئة الله تعالى، وأتحفتكم بهذه الهدية الملقبة في غيوب الأزل، بأمر من لم يزل، بـ «بلغة الغواص في الأكوان إلى معدن الإخلاص في معرفة الإنسان»، و«التنبية على القيامة التي هي النبوة والخلافة والإمامة»، و«التلويح بالختم الذي جاء به التصريح والكتم» لقوله عليه الصلاة والسلام: «ما أهدى المسلم لأخيه المسلم هدية أحسن من كلمة حكمة، سمعها فوعاها، وازداد بها هدى»، فليتأملها الواقف منكم عليها بلُبه، وليقبل عليها بقلبه، فإنها لم تأت إلا غيرة منه له عليه، رحمانية إنسانية إحسانية، بلا أنا، ولا لي، ولا مني، ولا بي، بريئة من شوائب الأغراض النفسانية إن شاء الله، وهو حسبي ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير.

وقد اجتهدت في تسهيل العبارة، وطولت تقريباً، وبالغت بالتصريح في [معاني] الإشارة ترغيباً، رجاءً ينال المستحق بغيته، ويبلغ ضعيف الذهن أمنيته، إذ قد أمرنا بالسير على سير أضعفنا، وعلى الله قصد السبيل.

فأنت يا ذا الفصاحة إن كنت ذائقاً؛ تعلم من حيث شهودك ماذا تريد، وتفهم ما رمزناه لك فيما لذي الإيمان قربناه وسهلناه، على من لم [يعثر] على غرائب الألفاظ، فعبر لنفسك حسب ما يوافقها، وإن كنت غير ذائق فحسبك المعنى، اشتغل به، ودع غيرك يرتزق معك من فتح الله سبحانه، وتزود في سفرك ما يسره الله سبحانه لك، [واستطبت] من الإيمان، وحذف الإنكار والتسليم، لما تسمعه، والإصغاء بسمعك إلى ما يقرعه، مكسواً بصفاء إيمانك؛ تجد شفاؤك، إن شاء الله تعالى.

وأنت يا ذا التردد، كرر قراءتها، واجتهد في تحسين الظن بالله سبحانه، والالتجاء إليه في أن يهديك؛ لما يعلم لك الخيرة فيه في دينك، وأكثر من التضرع إلى الله سبحانه، وعول بكليتك عليه، فإنك إن صدقت بآلِكَ الله سبحانه ذلك.

وأنت يا ذا العناد والمكابرة، والمضادة والمفاخرة؛ فافرضها ليس الكلام معك، (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا) [الكهف: ١٧]، و(مَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا) [الأنعام: ١٢٥]، واعلم أنك عندي معذور؛ فإن الكليم الذي هو أكمل رُسُل وقته، التمس من الله سبحانه أن يجعل له إلى الخضر سبيلاً، بعد أن شهد الله له أنه آتاه علماً من لدنه، ليس من علم موسى، ثم اشترط عليه الخضر ألا يسأله عن شيء؛ حتى يحدث له منه ذكراً، بعد أن أخبره أنه لا يستطيع معه صبراً، والله سبحانه لسان الجميع لا محالة، ثم لم يستطع موسى صبراً حين رأى ما يخالف شريعته، وعلمه الذي قد تغذى به من الحق، ومعرفته بالحق؛ فعاتبه حالته، وكان من أمرهما ما أخبر الله.

فكيف بك يا ذا الظن والتخمين؛ تسمع كلاماً مما هو في ظنك مثلك، إن لم يكن دونك في فهمك، لم يأتك بعصمته كتاب ولا سنة، ولا له عندك يد ولا له عليك منة، فلست بمعول على إنكارك ولا إقرارك، علماً بأن الفساد في القوالب المحتجة بسوء

أفهامها؛ فإنه لم يتبع الرسل إلا من كان منهم، (وَأَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ) [هود: ٣٦]، هذا التنزيل العزيز الذي (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) [فصلت: ٤٢]، ضلَّ به كثير، واهتدى به كثير، مع أنه لا ريب فيه، وإنما الريب في أفهامهم منه، فإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا، فحجبتهم أفهامهم، كما ترى المطر ينزل من السماء عامًا فيصيبه عامًا؛ إلا من احتجب بكن أو حائل، ولست بمتكلف عجرفة؛ فإن ذلك مذموم شرعًا، قال ﷺ: «أَنَا وَالْأَنْفِيَاءُ مِنْ أُمَّتِي بُرَاءٌ مِنَ التَّكْلِيفِ»، ولا ما لا تدعو الحاجة إليه من الملاطفة، أقبل ﷺ على كبراء المشركين استجلابًا لقلوبهم إلى دين الله؛ فعوتب بقول الله سبحانه: (أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى) [عبس: ٥]، وقال ﷺ: «أدبني ربي فأحسن تأديبي».

فالرسل مبشرون ومنذرون، والورثة مبصرون ومخبرون، والله سبحانه المضل الهادي، قال سبحانه: (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) [الأنعام: ٤٨]، (وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) [البقرة: ٢١٣]، ولا شك أنه سبحانه ما يشاء إلا ما علم من أحوالهم واستعدادهم، علم ذلك من علمه، وجهله من جهله، إيه لا يُشك أنه قد ضعفت أفهام العامة اليوم؛ حتى صار من ينتمي إلى الخاصة، يطلق على ما يفهمه من حقائق التنزيل أنه رمز؛ فأطلقناه اعتبارًا لعرفهم، تأديبًا إلهيًا؛ إذ قد اعتبر سبحانه عُرف المخاطبين في خطابهم إياه في غير ما موضع، وليس ذلك رمزًا في حقيقة الأمر، وهيهات: فإن الرسل عليهم الصلاة والسلام لم يدعوا شيئًا يُقرب الخلق إلى بارئهم إلا ذكروه لهم، ولو كان الأمر على ما زعم هؤلاء؛ لكان فيه تكليف ما لا يُطاق، بيد أن الأهواء افتترقت بعد الرسل، فذهبت الفهوم نحو مذاهب الأهواء؛ لأن الشياطين تكون بوجودهم مغلوطة كما بينته لك إن فهمت.

فلما تكلم الصحابة رضي الله عنهم بما سمعوه وفهموه، ووعوه وشهدوه، وعلموه، فهم عنهم كلُّ بقدر وسعه، وأخذ كلُّ يتصرف فيما فهم بعقله، ويُخبر بمفهومه، وربما تصرف في عبارة الراوي وغيرها، وربما ساق ما فهم بغير عبارة الراوي، فجاء بمفهومه المخالف للراوي، وهو يرى أنه مراد الراوي، فلم يكد يفهم الآن من الكتاب والسنة لذلك؛ إلا ما يسبق إلى الأفهام الضعيفة، ولأجل ذلك امتنع أكثر الصحابة عن إظهار ما

سمعوه ووعوه، وما علموه وشهدوه، وفهموه إلا على قدر ما يصلح بحال السامع لقوله ﷺ: «لا تعطوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم»، حتى قال أبو هريرة رضي الله عنه: لو بثنت فيكم ما أعلمه لقطع مني هذا البلعوم.

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ) [الطلاق: ١٢]: لو ذكرت تفسيره لرجتموني بالحجارة.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد أومى إلى صدره: (هاه كم هنا علوم، لو وجدت لها حملة)، وفي رواية: إن هاهنا لعلمًا جمًّا، لو أصبت له حملة، بلى قد أصبت [لَقْنَا] غير مأمون عليه، مستعملًا آلة الدين للدنيا، مستظهرًا بنعم الله على عباده، بحججه على أوليائه، أو مُنْقَادًا لحملة الحق، لا بصيرة له في [بجئاته]، بل يقدح الشك في قلبه لأول عارض من شُبْهة، لا أحب ذا ولا ذاك، أو منهومًا باللذة، سلس [الانقياد] بالشهوة، أو مغرمًا بالجمع والادخار، ليسوا من دعاة الدين في شيء، أقرب شُبْهًا بالأنعام السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامله، اللهم بل لا تخلو الأرض من قائم لله بحجته؛ إما ظاهرًا مشهورًا، وإما خافيًا مغمورًا، لنلا تبطل حجج الله وبيئاته، فأين أولئك؟ أولئك الأقلون عددًا، الأجلون عند الله قدرًا، بهم يحفظ الله حججه وبيئاته؛ حتى يودعوها في نظائرهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم عليهم العلم على حقيقة البصيرة، فباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان؛ أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه، آه آه شوقًا إلى رؤيتهم).

ومثل ذلك اشتهر عن علي بن الحسين رضي الله عنه:

إِنِّي لَأَكْتُمُ مِنْ عِلْمِي جَوَاهِرَهُ      كِي لَا يَرَى الْعِلْمُ ذِي جَهْلٍ فَيَفْتِنَنَا  
وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي هَذَا أَبُو حَسَنِ      إِلَى الْحُسَيْنِ وَوَصَّى قَلْبَهُ الْحَسَنَا  
يَا رَبِّ جَوْهَرِ عِلْمٍ لَوْ أَبُوخُ بِهِ      لِقِيلَ لِي أَنْتَ مِمَّنْ يَعْبُدُ الْوَثْنَا  
وَلَا سَتَحَلَ رِجَالُ مُسْلِمُونَ دَمِي      يَرُونَ أَقْبَحَ مَا يَأْتُونَهُ حَسَنَا

هذا في زمانهم، فما ظنك في هذا العصر الذي لم يكد يبق فيه من الدين إلا رسمه، ولا من العلم [إلا] اسمه، فإذا كان أولئك الذين اهتدى بهم من اهتدى، وضلَّ بهم من ضلَّ، فمن أين يبقى أحد يفهم التنزيل العزيز والسنة؛ إلا بتأييد إلهي، واختصاص رباني، فانظر بإنصاف هداك الله فيما ذكرته لك، لعلك تستعين به إن شاء الله على التوقف عن الإنكار، وإقامة عذر المنكر فيما لم يفهمه إن فهمت، وعلى الله قصد السبيل

### فصل

اعلم أن الله سبحانه بلطيف حكمته، أوجد الوجود رتقاً ثم فتنقه، كما قال سبحانه: (أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا) [الأنبياء: ٣٠] فالرتق اتحاد الشيء وانجماعه، والفتق: هو افتراقه وامتيازه، فحالة الرتق؛ هي كون العالم بأسره عقلاً محضاً، وحالة الفتق؛ هي امتيازه عوالم، كما جاءت الأخبار الصحيحة حيث أخبر ﷺ: «إن أول ما خلق الله عز وجل درة بيضاء .... الحديث»، فتلك الدرة هي العقل الذي أخبر به ﷺ: «أول ما خلق الله العقل»، وذلك العقل هو نور رسول الله ﷺ الذي أخبر عنه فيما رواه جابر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول شيء خلقه الله تعالى فقال: «هو نور نبيك يا جابر خلقه الله تعالى، ثم خلق فيه كل خير، وخلق بعده كل شيء، وحين خلقه أقامه قدامه في مقام القرب اثني عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أقسام، فخلق العرش من قسم، والكرسي من قسم، وحملة العرش وخزنة الكرسي من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الحب اثني عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أقسام، فخلق القلم من قسم، واللوح من قسم، والجنة من قسم،



وأقام القسم الرابع في مقام الخوف اثني عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أجزاء، فخلق الملائكة من جزء، وخلق الشمس من جزء، وخلق القمر والكواكب من جزء، وأقام الجزء الرابع في مقام الرجاء اثني عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أجزاء، فخلق العقل من جزء، والعلم والحلم من جزء، والعصمة والتوفيق من جزء، وأقام الجزء الرابع في مقام الحياء اثني عشر ألف سنة، ثم نظر الله ﷻ إليه؛ فترشح النور عرفاً، فقطرت منه مائة ألف وعشرون ألف وأربعة آلاف قطرة من النور، فخلق الله سبحانه من كل قطرة روح نبي أو رسول، ثم تنفست أرواح الأنبياء، فخلق الله من أنفاسهم الأولياء، والشهداء، والصالحاء، والسعداء، والمطيعين إلى يوم القيامة، فالعرش والكرسي من نوري، والكروبيون من نوري، والروحانيون من الملائكة من نوري، والجنة وما فيها من النعيم من نوري، وملائكة السماوات السبع من نوري، والشمس والقمر والكواكب من نوري، والعقل من نوري، والعلم والحلم من نوري، والعصمة والتوفيق من نوري، وأرواح الرسل والأنبياء من نوري، والشهداء والسعداء والصالحون من نتائج نوري، ثم خلق الله اثني عشر ألف حجاب، فأقام الله من نوري، وهو الجزء الرابع في كل حجاب ألف سنة، وهي مقامات العبودية والسكينة [والهيبة] والصدق واليقين، فغمر الله ذلك النور في كل حجاب ألف سنة، فلما خرج النور من الحجب زكاه الله في الأرض، فكان يضيء منها ما بين المشرق والمغرب كالسراج في الليل المظلم، ثم خلق الله آدم من الأرض فركب فيه من النور في جبينه، ثم انتقل منه إلى شيث، وكان ينتقل من طاهر إلى طيب، ومن طيب إلى طاهر إلى أن أوصله الله إلى صلب عبد الله بن عبد المطلب، ومنه إلى رحم أمي آمنة، ثم أخرجني إلى الدنيا، فجعلني سيد المرسلين، وخاتم النبيين، ورحمة للعالمين، وقائد الغر المحجلين، هكذا كان بدء خلق نبيك يا جابر» فقد تبين لك بهذا الحديث أنه ﷺ كل العالم وأن كل جزء من العالم مظهر له من حيث اتحاده، وجزء منه بعضه وغيره من حيث امتيازته وانفراده، ونوره الذي هو العقل أصل العالم كما [مر] فإنه قد اندرجت السماوات والأرض والجنة والنار في هذا الحديث، إذ قد ذكر العرش والكرسي، ولا تستبعد ذلك لأجل ما دخل في ضمن ذلك من الأشياء السخيفة عندك

كالنار والفجار والكفار، فإنك تعلم أن آدم مجموع البشر، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، من حيث هم أجزاءه، ورفيعهم ووضيعهم، وذكرهم وأنثاهم، وإنه من حيث شبحه بعد امتياز الذريه عنه بعضه، وإنما بقي الاسم عليه لبقاء الصورة على حالها الظاهر بعد افتراقهم عنها، وأنهم أجزاءه وأبعاضه، وأغياره وليسوا بأغياره، وهو وليسوا بهو، ثم شرف كل شريف منهم شرف له، فهو في صورة أشرف منه في صورة أخرى كالرسل والأنبياء، فظهر لك بهذا أن الإنسان الصغير الذي هو آدم وذريته ثمرة العالم إذ بذره العقل، فهو عقل، إذ الثمرة هي البذر المتضمن للشجرة، والثمرة فشجرتها أجزاء العالم بعد امتيازهم عنه من حيث الأشباح، ولذلك استجدوا أسماءاً آخر، وإنه أشرف من غيره ممن امتاز عنه من ذريته، فنزل عن صفته فلم يعد إليها لا ممن بقي على صفته إن كان، أو ممن نزل عنها فارتفع عليها، كما قيل في مدح سيدنا محمد ﷺ:

تَخَيَّرَ اللَّهُ مِنْ آدَمَ      فَلَا زِلَّةَ مُنَحَدَرًا  
تَرْتَقِي

وأن شرف كل شريف منهم شرف له، فهو في صورة أشرف منه في صورة أخرى كالرسل والأنبياء بالنسبة إلى الأولياء، والأولياء بالنسبة إلى من سوى الرسل والأنبياء، فإن كل واحد منهم هو مظهر لآدم هو جزءه وعينه من حيث الاتحاد، وبعضه وغيره من حيث الامتياز عن المجموع، فكَذلك محمد ﷺ مجموع العالم من حيث أن العالم أجزاءه، وهو مفترق ما بين حجاب ومحجوب، وفاضل ومفضول لما نذكره بعده، وهو بعض العالم من حيث امتياز بصورته المحمدية، وأجزاء العالم أبعاضه وأغياره، وهو وليست هو، وهو في بعض العالم أشرف منه في بعض، فشرف كل شريف شرف له، وهو مبتدأ من حيث روحانيته التي هي العقل المحض الأول المعبر عنه بالقلم الأعلى في الحديث الآخر حيث قال ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ» أشرف من غيره بما امتاز عنه فلم يبلغ درجته ولم يبق على وصفه.

**فصل:** استبان لك أن الإنسان الصغير الذي هو آدم وذريته ثمرة العالم إذ بذره العقل فهو عقل إذ الثمرة هي البذر المتضمن للشجرة والثمرة، فشجرتة أجزاء العالم، شهد بذلك الذوق والشهود والكتاب والسنة، فأما الذوق والشهود فموقوف على أهله، وأما السنة فما ذكرت لك آنفاً، وأما الكتاب فقوله سبحانه: (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ) [الجاثية: ١٣] وقوله: (جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا) [الأنعام: ٩٧]، وقوله: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا \* وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا) [النبا: ١٠، ١١]، إلى أي كثيرة تشهد بتصديق الحديث النبوي، وتصديق ما جاء في الإسرائيليات «ابن آدم خلقت كل شيء لأجلك وخلقتك لأجلي»، فعدَّ تعالى أجزاء العالم، وأخبر أنها مجعولة للإنسان، ومن ذلك قوله سبحانه: (خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) [الطلاق: ١٢]، فلا جرم علمنا أن المخلوق من الأرض مثل السموات هو صورة الإنسان؛ لأنه لو كان المراد به الأرضين لم يقل من الأرض؛ لأن من للتبعيض، وصورته موازية للسموات التي هي صورة روحها العقل، وقوله: (يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ) هو أرواحهن، قال سبحانه: (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) [الإسراء: ٨٥] وعلمنا أن الإنسان عين العالم فإنه مخلوق منه، وإنما امتاز عنه بهذا التأليف المخصوص كامتياز كوز من جمد الماء مليء ماءً، عن الماء باليوسفة العارضة له، وهو عين الماء، ولذلك كان وجوده أيضاً رتقاً ثم فتق بتمييزه.

ولهذا التأليف الذي امتاز به كان سر الوجود وختمه، إذ بدايته العقل، وأعني بالختم الصورة الأدمية ما بقيت، وكانت مرآة الوجود؛ فكان بذلك الإنسان عرش الله، أعني بالإنسان – هاهنا - الوجود المطلق من حيث اعتبار الصورة الإنسانية فيه والإنسان الكامل، وإلى هذا التأليف ولأجله سجدت الأكوان للمتجلى؛ فإنه لو لم يوجد على هذه الصورة لم تتسع الأكوان للتجلي، إذ هو الأمانة المعروضة على السموات والأرض، وهو سر الخلافة ولذلك قال سبحانه أنه خلق هذا الخلق على هذه الصفة؛ ليعلم أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً، فدل بإخباره أنه خلق هذا الوجود؛ ليعلم به على كمال وجود القدرة، وسعة الإحاطة العلمية على

مطابقته في الكمال والسعة، والارتباط والمقابلة، ولو لم يكن الإنسان عين العالم لما كان يدرك [هذا العلم بالعالم]، ولذلك خصه الله سبحانه بالسعة حيث [أخبر أنه لم تسعه سمواته ولا أرضه ووسعه قلب المؤمن من نوع الإنسان] ولما كان الأمر كذلك قال سبحانه: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى: ١١]، فالكاف بهذا الاعتبار أصلية وليست زائدة، والمثل المشبه هو الكون الذي ظاهره السموات والأرض والعرش والكرسى، وباطنه العقل الأول، والمثل المنزه هو الكون الثاني المخلوق على الصورة التي هي الكون الأول المذكور آنفاً؛ فالمثل المنزه هو الإنسان، ولذلك عبر عن نفسه سبحانه فيه بـ «كُنْتُ سَمْعُهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ..... الحديث» فخص في السمع لا على الأذن، وعلى البصر لا على العين، وفي بعض الروايات «وجنانه الذي يعقل به» إشارة إلى الباطن، ثم قال: «ولسانه الذي ينطق به وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا» إشارة إلى الظاهر، وعبر عن نفسه سبحانه في الكون الأول الذي هو المثل المشبه بـ «كُنْتُ كَنْزًا مَخْفِيًا».

فإن أنصفت فهمت أن الإنسان هو الكون بأسره من حيث هو ثمرته، وهو سره من حيث انفراده عنه لأنه مرآة تجلى الحق بالعالم بظهور أسمائه وصفاته، فقلوه سبحانه: «كُنْتُ كَنْزًا» يشير من حيث الجملة إلى الكون المطلق قبل وجود آدم فيه، ومن حيث الكون؛ أعني انفراده عن آدم إلى وجود بعض الكون دون بعض، إذ لا يتم التجلي التام الكامل بكل الأسماء جملة إلا بوجود آدم أعني نوع الإنسان؛ فإن ظهور الأسماء جملة تطلب ظهور آثارها جملة، وظهور آثارها جملة لا يتم ببعض الكوائن دون بعض؛ فإن الشيء حجاب لنفسه من حيث هي؛ هو كصداء المرآة يمنعها من تمام استجلائها نفسها فيها، أو كالمرآة نفسها لنفسها لا تتجلى لنفسها إلا على نوع من المقابلة التي هي [نوع] من البعد؛ فإن المرآة لو جعلها شخص على وجهه لم يتجل له بها وجهه تمامًا مع الملاصقة، فكذا رؤية الشيء نفسه بنفسه ليس كرويته نفسه بشيء آخر يكون غيره أو كأنه غيره من بعض الوجوه؛ فالكون بهذا الاعتبار مجرداً عن آدم، مرآة غير مجلوة وعدم جلالتها هو احتجابها بذاتها فلا ترى نفسها إلا بعين الاتحاد لا بعين الامتياز فأوجد سبحانه آدم على صورة الكون غيباً باطناً وظاهراً شهادة؛ فقابل

بغيبه الغيب، وبشهادته الشهادة؛ ليتجلى فيه هذا التجلي بمجموع الأسماء؛ فلذلك قال «فبي عرفوني» فالياء ضمير الكون الأول، وليس الكون الأول غيرهم، إذ قد أخبر أنه ظاهرهم وباطنهم لا سيما وقد عم سبحانه في أول الحديث المروى عنه «لَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ» فعم باسم العبودية التي تشمل الكون الذي هو الخلق لقوله سبحانه: (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا) [مريم: ٩٣]، وقوله (لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ) [الأعراف: ٢٠٦]، وقوله (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِثَاءً) [الزخرف: ١٩]، وقوله: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) [الإسراء: ٤٤]؛ فلهذه الإحاطة قال: (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى: ١١] (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) [الحديد: ٤]، (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ) [الأنعام: ٣]، (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ) [الواقعة: ٨٥]، (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) [ق: ١٦]، فإن لم تكن ذائقاً فلا تحرم الإيمان، وإذا فهمت أن الإنسان الصغير من حيث هو ثمرة العالم الذي بذره العقل عقل مطوي مدسوس فيه عقول مقبوضة كما أشار إليه التنزيل بقوله: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) [التين: ٤]؛ فالإنسان هاهنا كل العالم الذي عبر عنه بالإنسان الكبير؛ فلذلك نقول: أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان من هذا العالم الذي هو الإنسان الذي العالم شجرته، والعقل الأول بذره وآدم وذريته ثمرته؛ فالذي هو في أحسن تقويم آدم من حيث هو كل العالم، والمردود أسفل سافلين الذرية التي غلبت عليها الشهوة، والمستثنى بـ (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا) [التين: ٦] آدم من حيث صورته الإبداعية الأولى، ومن شاكلة وقاربه وزاد عليه من ذريته، وكلا الذريتين عقول مقبوضة في آدم مطوية، بسطها الله سبحانه بالتنازل فأدم متضمن لجميع الذرية، تضمن النواة للنخل الكثير والتمر والنوى، لا يتناهى بحسب البسط والتربية، وما انبسط منها أيضاً متضمن لذلك، ثم فلاحه بعد البسط بتزكيته وخيبته بدسه كما قال سبحانه: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا \* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) [الشمس: ١٠، ٩] ولما كان الأمر كذلك تبين أن التزكية هي البلوغ إلى العقل والاتحاد به، إذ هذه النفوس البشرية عقول بالقوة مطوية حتى تخرج إلى الفعل وخروجها هو الأمانة التي حملها الإنسان؛ فإنها تسمى نفساً من قبل ثم تصير عقلاً، وخروجها بالتزكية التي هي الطهارة، وتزكيته

وطهارتها بالأعمال الشرعية التي بها تستنير وتصفو وتشرق وتعود إلى أصلها، وتتحد بالعقل الأول وربما أنفت أن تكون كهو بعد تمام الدورة، ودورها كالنواة مثلاً فإنها نواة بالفعل، وبالقوة نوى كثير ونخل كثير وتمر كثير يتضمن أمثالا له كثيرة؛ فإذا بسطتها التربية صار ما كان بالقوة مطوياً بارزاً بالفعل وذلك تمام الدورة؛ ولذلك علق الشرع التكليف بوقت حلول الشهوة لأنه زمان بروزه إلى الفعل من القوة حيث قد بلغ إلى الحالة التي تأتي منه مثله ودسه بملازمة الأفعال الشهوانية الحيوانية والمحارم الشرعية التي تزيدها كثافة وتعلقاً بالمحسوسات وغلظة؛ فتأتي في القيامة على ما وصفها الله ورسوله من الإجمام وعظم الخلق حتى يكون ضرر الكافر أكبر من أحد وليس كذلك العقول الذكية فإنها تأتي على ما وصفها الله في التنزيل.

والرسل به من اللطافة في النشأة الآخرة بحيث يمكنه التشكل والتلبس بالصور من غير خلع في سوق الجنة على ما جاء الحديث به بحسب شهواتها وتختص بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ فالتركية تردها إلى أصلها كما قال سبحانه: (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ \* ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ ..... ) الآية [الفجر: ٢٧، ٢٨]، والدس يُنكسها إلى أسفل سافلين إلى الأجرام الكثيفة السفلية، مصداق ذلك قوله سبحانه: (اللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا) [النحل: ٧٨]؛ فقد أفهمتك أن نطفة هذا النوع عقل مدسوس يتضمن عقولاً كما قلناه فهو يرتقي بالنمو، وينبت في البطن، ثم ينتقل إلى الحيوانية، ثم فيها يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً كما قال سبحانه آنفاً حتى يبلغ أول المراتب الإنسانية، وهو زمان التكليف فنفسه حينئذٍ أماره كنفس الطفل لا تترك شهواتها وإن علّمت أنها تضرها، وبالتركية تصير لوامة تلوم نفسها على تورطها في شهواتها، يجد الإنسان ذلك من نفسه من صغره إلى كبره؛ فإذا زكت وصفت اطمأنت إلى الله سبحانه فسُميت مطمئنة، وأهل هذا الوصف يتفاوتون فأعلى وأدنى؛ فاستبان لك أن حقيقة العالم في الأصل واحدة أولها العقل وآخرها الإنسان، وإن الإنسان إنسان، الإنسان قد جمع فيه أسرار العالم، إذ البذر هو متضمن الشجرة والثمرة، وإن بقاء العالم ببقائه، وإن معنى الخلافة فيه بمقابلة الإنسان الكامل الذي هو كل العالم بقوة مغناطيسيته صورة ومعنى، إذ قد جعل سبحانه بين قواه المزاجية وبين

الأرواح العلية مناسبة يحصل بسببها انفعالات شبيهة بالاستحالات، من اللطافة إلى الكثافة، ومن الكثافة إلى اللطافة، كما يستحيل الماء هواء والهواء ناراً، والجسوم بالتحليل والتقطير ماء ويستحجر الماء فينعد؛ فجعل الحق سبحانه اللطيف منه مقابلاً لللطيف، والكثيف مقابلاً للكثيف، وجعله البداية والختم، ومحل الإفشاء والكتم، وجعل قوة باطنه سبباً لضعف ظاهره وبالعكس، وما يقربه من الباطن حياة وما يلحقه بالظاهر موتاً، فسمي لذلك العلم حياة والجهل موتاً فقال: (أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ) [الأنعام: ١٢٢]، وقال في المشركين: (أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ) [النحل: ٢١]، وجعل السعادة في استواء الظاهر والباطن؛ لأن بذلك انضباط العالم وبقاء استمداد بعضه من بعض، وإمداد بعضه بعضاً، إذ الأمر كما أفهمتك بطون من ظهور، وظهور من بطون إلى الوقت المعلوم.

### فصل

وبهذا الفهم تفهم أن اختلاف المقاصد بحسب غلبة الصفات المطوية في الأكوان كلها ومن ذلك اختلاف مقاصد نوع الإنسان إذ كنا قد قلنا أن جميع الصفات مطوية فيه فما غلب عليه كان الحكم له كما غلب في لسان الأطباء إطلاق وصف الحرارة واليبوسة على الفل فل مع ان فيه الطبائع الأربع وفهمت أن اختلاف الهمم باختلاف المطامع لأن الهمم متعلقة بها وحروف الطمع كما ترى مجوفة غير منقوطة ولولا المطامع لانقطعت الهمم ولولا الهمم لبطلت الأعمال وعلمت علم اليقين أن بلوغ الآمال بسياقة الأقدار وموافقة التوفيق بالاهتمام بالمقاصد والاستقامة على سلوكها، وأن سياقة التوفيق بالاهتمام بها والاستقامة على سلوك سبيلها من جملة القدر بيان ذلك أن راحة كل شيء في كماله هذا ما لا يشك فيه وجماله وفضله فالنفوس في الأصل مجبولة على الاهتمام بكمالها، وكمالها في بروزها بجميع صفاتها، وبروزها [بها جميعاً] في هذه الدار معاً متعذر؛ لأن ظهور بعضها يقتضي بطون بعض، وبطون بعضها يقتضي ظهور بعض فصار طريق كمالها طريق نقصها؛ لأنه سبحانه هو القائم على كل شيء بأسمائه وصفاته تبارك وتعالى كما قال: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) [الحديد: ٤]، (فَإَيْنَمَا تَوَلَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) [البقرة: ١١٥]، (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

[الفجر: ١٤]، فمتى اتصف العبد بصفة توجه إلى وجه من وجوه أسمائه، وأسماءه تختلف باختلاف أفعاله بالعبد التي هي أفعال للعبد، كما نبه عليه سبحانه في قوله: (سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ) [الأنعام: ١٣٩]، ونبه عليه بقوله لرسوله: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ.....) الآية [يوسف: ١٠٨]، وأخبر عنه سبحانه بصحة بصيرته في الدعوى بقوله في آخر الآية: (وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)؛ ليعلمنا أنه إنما يدعو إلى من الله لا من غيره، ولكن باختلاف أسمائه، فيدعو أهل الضلال من اسم الله المضل؛ الذي يملئ لهم برحمته إياهم في هذه الدار، واستدراجهم واللفظ بهم، ويخوفهم من أن يُحشروا إلى الله من حيث اسمه المنتقم القهار الجبار المتكبر؛ الذي ينتقم منهم في داره التي هي جهنم، ويدعو أهل الهدى من اسمه الهادي؛ الذي يشوقهم ويخوفهم ويستعملهم في مرضاته ويرجيهم أن يُحشروا إلى الله من حيث اسمه الرحمن في داره التي هي جنة عدن؛ فيشهدهم في هذه الدار جلاله وانتقامه وعظمته وقهره؛ فيتقوه فيها فيحشروهم إليه في داره التي هي جنة عدن، ويرحمهم فيها، ويلطف بهم، ويملكهم ويخلع عليهم، كما قال سبحانه (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا \* وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثَةً) [مريم: ٨٦، ٨٥]؛ فبقوله سبحانه لنبيه أن يقول: (وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [ينبه عليه وجده]، كأبي يزيد عليه السلام حيث قال: «واعجابه كيف يحشر إليه من هو جليسه، كأنه يقول: هو جليس المنتقم من حيث الخشية والتقوى فحشر إلى الرحمن، [والمجرم] جليس الرحمن من حيث ارتكاب الهوى، والتمكن منه فحشر إلى المنتقم، وذلك بأن المحشور إلى عدن سعيد، فذكر له الاسم إذ هو في محل كشف الحجاب وبلوغ الأمل، والمحشور إلى جهنم شقي في محل العذاب، وأشد العذاب الحجاب، بل العذاب هو الحجاب ألا تراه يقول: (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ \* ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ) [المطففين: ١٥] فبدأ بالحجاب الذي هو أشد العذاب؛ فلأجل ذلك ذكر الاسم الرحمن للسعداء، وذكر دار المنتقم للأشقياء؛ التي هي صورته التي يلقاهم بها لئلا [يسعدوا] بذكر الاسم، إذ لا يجهل أكثرهم أن المنتقم هو الرحمن، ومن ذلك قوله سبحانه: «إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ بِإِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» وقوله:



«وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَبِيرًا....» الحديث، والتقرب من السبيلين، فالتقرب على صراط الحميد إلى الرحمن، والتقرب على صراط المغضوب عليهم إلى المنتقم؛ وإنما يتقرب العبد إلى الرحمن بصفات ألبسها من المنتقم القهار وهي الخشية التي للنفوس في العبودية والتقوى والعبودية والذلة فيحبه عز وجل من حيث اسمه الرحمن فيظهر فيه سبحانه بصفاته الرحمانية الهادية المهدية كما قال: «فَإِذَا أَحْبَبْتَهُ كُنْتَ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ....» الحديث ويجعله في تلك الدار على عكس ما هو في هذه الدار ويتقرب إلى المنتقم بصفات ألبسها إياها الرحمن فيتظاهر بصفاته وذلك هو الإجماع والتجبر والتكبر والإملاء كما قال سبحانه: (إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ) [آل عمران: ١٧٨] وقال: (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ \* وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) [المؤمنون: ٥٦، ٥٥] وقال: (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) [الأعراف: ١٨٢] وقال: (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا) [البقرة: ٢٦]، فلذلك يُحْشَرُ إلى المنتقم في داره التي هي جهنم فيظهر فيه بالصفات الجبروتية القهرية كما ظهر في هذا هناك بالصفات الرحمانية فمن أحبه من هناك فكما وصف ومن أحبه من هنا كما وصف كما قال سبحانه: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) [العنكبوت: ٦٩] الجهاد من السبيلين وقال: (إِنْ تَتَصَرَّوْا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) [محمد: ٧] فإليه سبحانه منه المصير فلا يغرنك قوله سبحانه: (وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى) [النجم: ٤٢] (إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى) [العلق: ٨]، (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ \* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) [الغاشية: ٢٦، ٢٥] فتظن بأمثال هذه الآي أن المصير والإياب والمنتهى والرجعى إليه من غيره فتقع في قوله سبحانه يضل به كثيرًا فتتوهم أنه ليس معك أينما كنت وفي أي حال كنت وهو القائل (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)، (فَأَيْنَمَا تُولُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) [البقرة: ١١٥]، [فذلك ما أخبرتك بمن] قيامه على كل شيء، وكونه مع كل شيء بأسمائه وصفاته من البداية إلى النهاية، وتتبدل أسمائه وصفاته بتبدل أسمائك وصفاتك في تحولك من غير تحول منه، فهو في أول الأمر يدعوك، وفي الطريق يرشدك ويهديك، وينصرك ويعينك، ويؤيدك ويقومك، وفي الغاية يملكك ويخلع عليك الخلعة التي أوقفك عندها إن أوقفك وتلك النهاية، وتختلف أحوال المدعين والساعين والمملكين وأحوال الخلع باختلاف الأسماء قال سبحانه: )

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى [الإسراء: ١١٠]

يقول أيا ما تدعو من هذين الاسمين فله الأسماء الحسنی نعت أو صفة فإن لهذين الاسمين اللذين هما الله والرحمن مرتبة الإحاطة والكمال بالنسبة إلى ما سواهما من الأسماء وإن كان كل اسم من الأسماء إذا قدمته أمها كما يأمرها هذان الاسمان فنعت بها بيد أن لهذين الاسمين مرتبة الإحاطة الكبرى وذلك أن الرحمة هي المحبة والله سبحانه أظهر العالم بالمحبة حيث يقول: «كنت كنزاً مخفياً...» الحديث وأظهر المحبة في صور كثيرة فتكررت على من لم يذق حقيقتها بعين ما تعرفت به فسامها في باب الطلب محبة ورغبة وإرادة ومشیئة وشهوة وهوى ورجاء وليس ذلك كله إلا المحبة وسماها في باب الهرب بغضاً وكراهة ونفوراً ورهبة وخشية وليس ذلك فعلاً إلا المحبة فما كره الشيء وأبغضه وخشيه ورهبه ونفر عنه أحد إلا حباً في البعد منه والخلاص عنه كما قال موسى عليه السلام: «وعجلت إليك ربى لترضى» أي أحببت رضاك عني فجعلت في طلبه والطمع لا يكون إلا بالمحبوب والمحبوب إما حصول المرغوب أو خلاص عن مرهوب فما تحرك متحرك إلا بالمحبة لكنها ظهرت في صور مختلفة فتكررت في عين واحدة فتكررت فإن الله سبحانه قسمها [نصفين لتستقيم] الأعمال فسمى أحدهما غضباً من حيث الحق وسمى الآخر رضى فالرضا هو الرحمة والرحمة هي المحبة أبقاه على اسمه والغضب هو المحبة لكنه استجد له اسماً آخر فلذلك قال سبحانه: «سبقت رحمتى غضبي» فحصل الحق اسم الراحم والغاضب وللخلق اسم المرحوم والمغضوب عليه وسمى الرحمة نعيماً وسمى المرحوم منعماً والحق منع وسمى الغضب عذاباً وسمى المغضوب عليه معذباً والحق معذب فإذا كان الغضب بعد إساءة فهو عقاب والمغضوب عليه معاقب والحق معاقب وإذا كان الرضى بعد إحسان فهو سواء والعبد مثاب والحق مثير وعلى ذلك جميع أسماء الحق وأسماء الخلق فهذا معنى تقرب العبد من الحق فإنه تقرب من اسم إلى اسم ومن صفة إلى صفة وهذا معنى كون الحق للعبد سمعاً وبصراً فإن ظهور الحق به بصفة وبطونه بضدها فإن كون الحق منه كما وصف من حيث تقربه إلى اسمه الرحمن هو ظهوره فيه بهذه الصفة التي تسمى بها من حيث هي رحماناً وكونه منه كذلك من حيث تقربه

إلى اسمه الرحمن المنتقم هو ظهوره فيه بهذه الصفة التي تسمى بها من حيث هي منتقماً وليس ذلك كله إلا المحبة ولا المحبة إلا الرحمة فلذلك اختص محمد ﷺ برتبة المحبة فكان رحمة للعالمين لأنه حقيقة الجوهر القدسي وهو الكنز الذي هو أول مظاهر المحبة .

### فصل

فقد بينت لك أن الله سبحانه جعل جميع صفاته ترجع إلى صفتين وجميع صفات الخلق كذلك ولذلك تسمى بالظاهر والباطن وبالأول والآخر وبالمعز والمذل إلى غير ذلك من الأسماء واتصف سبحانه باليدين والعينين والإصبعين وبالقبضتين فلما قام الخلق بين يديه وإن شئت قلت بين صفتيه قال سبحانه: (قَائِمًا بِالْقِسْطِ) [آل عمران: ١٨]، وقال عليه الصلاة والسلام: «بِالْعَدْلِ قَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ» ولما كان ظهور صفاته وبطونها بظهور صفات الخلق وبطونها قال سبحانه: «إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أَرْدَهَا عَلَيْكُمْ» وقال: (سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ) [الأنعام: ١٣٩]، وقال: «مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا» وقال: «فَإِذَا أَحْبَبْتَهُ كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ» وجعل سبحانه الخوف والرجاء صفتي المحبة من حيث الخلق كما جعل الغضب والرضا صفتيهما من حيث الحق وجعلهما زمامين يقودان الخلق إلى ما هو صفة العبيد وسمة المربوبين مما قدره سبحانه عليهم ولهم فمتى اعتدلا اعتدلت الأعمال ومتى اعتدلت الأعمال اعتدلت الأحوال، ومتى اختلفا اختلفت الأعمال ومتى اختلفت الأعمال اختلفت الأحوال وقد وصف سبحانه نفسه بأن له يدين فقال: (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) [المائدة: ٦٤] ثم وصفهما بأن كليهما يمين من حيث هو سبحانه إذ ليس بمتحيز ولا في جهة، ووصفهما من حيث الخلق بيمين وشمال فقال: (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ) [الواقعة: ٢٧] ثم وصف حالهم بما يناسب اليمين من السدر المخضود والطلح المنضود والظل الممدود ونحو ذلك وقال: (وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ) [الواقعة: ٤١]، ثم وصف حالهم بما يناسب الشؤم من الجحيم والحميم والسموم واليحموم؛ فاليمين من حيث الحق والخلق ظهور صفات الله الرحمن الرحيم اللطيف الكريم وما في معناه اليمين من الأسماء، واليمين الأخرى من حيث الحق التي هي شمال من حيث الخلق

بها ظهور أسماء الله المنتقم القهار الضار المتكبر الجبار، وما في معناه الضرر والأذية للخلق وقد جعل سبحانه لكل يد أهلاً وجعل لها أحكاماً وحداً وجعل لأهلها فيها مقامات معلومة، وسبلاً مستقيمة، وشرائع مفهومة وحدوداً مرسومة تختلف باختلافهم، واختلافهم بحسب الأغلب عليهم من أوصافهم لأنه سبحانه قد شرف آدم بأن جمع له بين يديه بقوله سبحانه: (لَمَّا خَلَقْتُ بَيْدَيَّ) [ص: ٧٥] فهو مرآة يقبل ظهور اليمين ثم هو لما غلب عليه ولذلك انبسطت ذريته ليمتاز أهل كل عالم بما هو لهم كما نبه عليه الرسول بقوله: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونََ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لَهُمْ» لأن اسمه الغفار والغفور يطلب ظهور المغفور له ليظهر بظهوره إذ لا يُسمى سبحانه غفاراً إلا بوجوده، ووجوده وقف على ظهور الذنب، وبظهور الذنب يظهر اسم الله المضل سبحانه، ولذلك أخبر ﷺ: «أَنْ لِّكُلِّ وَاحِدٍ مَّقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ وَمَقْعَدًا مِنَ النَّارِ» فإذا غلبت عليه الصفات التي تقضى أحد المقعدين اختص به ما لم ترحزحه العناية الأزلية وذلك أنى قد أخبرتك أن الأمانة التي حملها الإنسان هي سر الخلافة الذي هو الإنسان لظهور أسماء الحق وصفاته فيه وبطونها كما أشار إليه سبحانه في قوله: «لَا يَسْعَنِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي وَيَسْعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ»، وإليه الإشارة بقوله: «خَلَقْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَجْلِكَ» أي من أجل وجودك لأنك أنت ثمرته، «وَخَلَقْتُكَ مِنْ أَجْلِي» أي من أجل معرفتي، ومن أجل ظهوري، والنفس مجبولة على طلب كمالها لكمالها، وذلك سر خفي لأن الله تعالى (اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ) [التوبة: ١١١]، وهذا سر يفهمه أهله، ثم أمرهم أن يؤدوا الأمانة إلى أهلها، وهو أهلها لأنه (أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ) [المدثر: ٥٦] فالتقوى من الوقاية، والغفر هو الستر، والجنة من الاجتنان فمن ترك اختياره لاختيار مولاه؛ فقد دخل في عباد الله ودخل جنته واتقاه؛ أي جعل صفات الربوبية من القهر والتكبر وقاية وجنة لصفات العبودية، فستر ربوبيته في هذه الدار بعبوديته، وأجنها بصفات سيده، واتقاه بها فجعل صفات سيده وقاية له عن صفاته، ومن اتبع هواه فقد جعل صفاته وقاية وسترًا وجنة لصفات سيده فظهرت [صفاته بالربوبية] وبطننت صفات سيده واستقرت واختفت والأصل في ذلك ما أخبرتك به من أن سر الربوبية مطوي في النفس فهي

تريد الظهور طلباً للكمال وذلك السر يتنوع عليها فإنه يظهر فيها أولاً بشهوة الطعام والشراب فإن الخبز سر الذات وسره في الماء كما قال سهل رحمه الله، ولم يطلع على هذا السر إلا أكابر أهل الله ثم ينضاف إليها شهوة الملبوس، فإذا بلغت أول التمييز ظهرت بشهوة الرياسة فإذا بلغت أول ظهور العقل المؤيد ظهرت بشهوة النكاح طلباً للكمال من كل وجه بالبقاء والتكثر والاتحاد فهذه شهوة محجوبة باللذة وهو أول الكمال ولأجله أمكن وجود البذر الذي يأتي منه مثله ثم ينبسط فيظهر بأنواع الصيت والجاه والتملك والتقدم والترأس ومتى ظهر ذلك السر عليها بصورة انجذبت إليها فهي بمنزلة الطفل الذي لا يحتمي عما يشتهيهِ إذا وجده ولو علم أنه يضره حتى يؤيد بالعقل النور فيحمله كما يحمي الطفل والده حذراً من [عيشه] بالشهوات فتعفن معدته، ويهلك لأن «**النفس في الأصل على الفطرة**» كما قال رحمه الله، وسلوكها من إحدى اليمين إلى الأخرى يكون بالتقرب كما قال الله وليس التقرب إلا من اسم إلى اسم ومن صفة إلى صفة حتى تغلب عليه إحدى الصفتين واليمينين والاسمين، فتظهر بها أي بصفاتها وأسمائها وذلك هو المحبة التي تنتج كون الحق منه كما وصف؛ أي ظهور صفاته فيه بذلك الأمر، وهذا الأمر مشهود فإننا نرى الواحد يعمل الحسنة على كره ومشقة ثم يتكرر ذلك منه حتى تخف عليه بل ربما صارت قرة عينه كما قال رحمه الله: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**» ونرى الآخر يعمل السيئة غفلة أو فلتة ثم يندم ويخاف فإذا عاودها خف ذلك الندم فيتكرر ذلك منه حتى يطبع على قلبه كما قال سبحانه: **(كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ)** [غافر: ٣٥]، فالمتقرب هو الذي يعمل في إحدى اليمين بصفات أهل اليمين الأخرى، والمحجوب من تحول إلى اليمين إلى اليمين، فهو محجوب من تلك اليمين وذلك الاسم، وهذا معنى التحريم، فإن الحرام هو الممنوع المحجوب وعلى هذا وضعت التكاليف فجعل سبحانه صفات أهل إحدى اليمينين في هذه الدار حرام على أهل اليمين الأخرى، وما خرج من إحدى اليمينين إلى الأخرى لحقته أحكامها، وما بقى فيها ففساده اتصافه بصفة أهل اليمين الأخرى قال الله تعالى: **(لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ)** وحرّم الغنائم على غير المحمديين لأنها مأخوذة من تلك اليمين بغير اختيارها فكانت تنزل لها نار من السماء تحرقها إذ هي في اليمين

التي تظهر باسم الله المنتقم وانتقلت إلى اليمين التي تظهر باسم الله الرحمن بيد المنتقم فإنها لم تخرج إليها إلا بوجه الانتقام فحكمه باق فيها ما بقى لليدين اعتبار فلما بلغت صور امتياز اليمينين في الصورة الإنسانية مجمع البحرين بسيدنا محمد ﷺ وهو المرأة التامة لليمينين كان أخذنا لها مبيحاً لها كما قال سبحانه: (لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ) الآية ، وذلك بأن الخلافة الأدمية لم تنزل تنبسط عملاً من آدم إذ هو مشرقها حتى انختمت بداود ﷺ وسليمان ﷺ ثم انبسطت علماً بعيسى ﷺ إذ يقول سبحانه: (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) [البقرة: ٢٥٣] فداود مغربها، وسليمان مستواها وتفضيلها وعيسى نباتها ومحمد ﷺ ثمرتها فهو مرآة كاملة يظهر فيها اليمينان، ودورة متصلة كاملة فكان أخذهم من أهل الشمال بخلاف أخذه انتقام باسمه المنتقم، وإعطائه أهل اليمين رحمة باسمه الرحمن فإن الشيء إذا بلغ محله اتصف بصفة المحل ألا ترى مهر البغي حرام عليها لأنها تأخذه في ذات اليمين بذات الشمال من ذات الشمال فهو حرام على من أخذه منها فلو رد إلى صاحبه حل له فحل لمن أخذه منه بوجهه وكذلك الصدقة المفروضة حرام على النبي ﷺ وآله؛ لأنها أوساخ الناس، كما قال سبحانه: (تُطَهَّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) [التوبة: ١٠٣]، فإذا وقعت بيد أربابها حلت له من أيديهم، وهي له هدية كما قال في بريرة: «هي لها صدقة ولنا هدية».

**فصل :** فقد استبان لك أن مناط التكليف العقل الاختياري، وقد ضرب لنا سبحانه بذلك أمثالا في شريعتنا منها الجوارح المعلمة في قوله سبحانه: (وَمَا عَلَّمْتُمْ مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ....) الآية [المائدة: ٤]، فشرع لنا في الكلب الذي يصير جارحاً بحيث يشليه صاحبه [فيشتال] ويرده فيرتد حل ما أمسكه علينا وحرم علينا ما أمسكه الكلب المختار لنفسه وسائر السباع، كذلك فإذا أكل الكلب من صيده تبيننا أنه لم يمسك على [مرسله] وإنما [يقتنص] لنفسه فحرم علينا، فالرجل من عرف اليمينين فلم يتميز في واحدة منهما، وإنما يكون وفقاً على مولاه، صورة الحق معناها لا يتحرك ولا يسكن إلا لله به، فقلبه حرم آمن من غير الله، ويتخطف الناس من حوله وحله سائر ذاته، وقد أعلمتك أن معنى الحرام الحجاب، والحرام المحجوب الممنوع أن يتصرف به بغير ما حرم له، وقد جعل الله سبحانه لهذه الصورة قياماً، وسماها أموالاً لميل النفوس إليها

كما قال سبحانه: (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا) [النساء: ٥]، وجعل ما اختصت به كل صورة حراماً على الأخرى إلا بطيب نفس منها لأنها حرم آمن، ومن دخله كان آمناً قال ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام دمه ماله» الحديث، وقال سبحانه: (فَإِنْ طَبِئَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ) [النساء: ٤]، وقال: (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا) الآية [النور: ٦١]، وجعل ما سعى به الإنسان أيضاً لنفسه لا للتقرب إلى الله، ولا لامتنال الأمر الإلهي حراماً على أهل خاصته، وضرب في ذلك مثلاً فجعل صيد الحلال حلالاً له وللحلال، وجعل صيد الحرام حراماً عليه وعلى الحرام والحلال، وقال سبحانه فيمن عمل له عملاً وأشرك به غيره: هو له كله وأنا منه بريء وقال: (فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا) الآية [الكهف: ١١٠]، وكذلك حرم على الإنسان قتل نفسه وجعلها أكبر الكبائر.

ولما طوى الله سبحانه اليمين التي هي الشمال في اليمين الأخرى جعلها حلالاً لها ما لم تدرج فيها، فإذا اندرجت فيها فتحريمها عليها ملكاً وقتلاً وقفاً على قبولها منها أو إعطائها الأمان بحسب أحكام الأمان المشروعة، وجعلها باقية على شرائعها وأحكامها ما لم تتحد فيها فمتى اتحدت فيها قبل الملك أبقى عليها من شرائعها ما لا يخالف الشرع المتجدد لليمين، كالكافر يُسلم وتحتة عشرة نسوة فيختار أربعاً ويُبقي على نكاحه الأول ما لم يكن فيها محرم، وإن كان بعد الملك أجرى عليها أحكام الأموال وألزمها من شرع اليمين ما تحتمله كما قد قرر وجعل اتحادها بها مخلصاً لها من الأحكام المتقدمة حتى لو قتل مشرك نبياً ثم أسلم فالإسلام يَجِبُ ما قبله، وإنما طواها بها لأنه لا بد من بقاء تمييز اليمينين لظهور الأسماء مع أنها يمين واحدة، وجعل سبحانه موالاة أهل اليمين لأهل الشمال سيراً شمالياً فقال: (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ) [المائدة: ٥١]، وكذا التقرب منهم كذلك، فقال: «من تشبه بقوم فهو منهم» حتى حرم كثيراً من أفعالهم، فأهل اليمين مطالبون بسير اليمين، ومطالبته أهل الشمال بالاتحاد في اليمين أو بالاندراج، وأهل الشمال مطالبون بالاتحاد في اليمين أو بالاندراج، فإن مات من اتحد باليمين حين اتحد مات طاهراً، وإن مات بعد ذلك فهو مطالب بسير اليمين، فيطالب بعد موته بتكليف الزمن الذي أدركه بعد الاتحاد من

تكليف أهل اليمين، وإنما كلف الله سبحانه أهل اليمين لأنها مرآة كاملة لمقابلة اليمينين، فلذلك انقسم أهلها إلى ظالم، ومقتصد، وسابق، وإن كانت صفوة من اليمين الأخرى؛ فإن الظالم هنا من تظاهر بسر الخلافة على غير وجهه الذي استخلف عليه، والمقتصد من تخلق به وراض نفسه عليه، والسابق من تحقق به فإننا سنبين أن الخلافة متدرجة في جميع النوع الإنساني كما نبه عليه سبحانه في قوله: (وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) [الحديد: ٧]، وقوله: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا) [النساء: ٥٨]، وقوله: (وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ) [النمل: ٦٢]، وقوله: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا) الآية [الفتح: ٢٩]، وكما نبه عليه رسول الله ﷺ بقوله: «العلماء ورثة الأنبياء»، وقوله: «رحمة الله على خلفائه»، وقوله: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»، فهذا النوع مستخلف من قبل الحق بقدر وسعة فأدناهم المستخلف على نفسه وأكملهم المستخلف على العالم بأسره وكل منهم ينقسم في خلافته إلى ظالم ومقتصد وسابق، فأسبق السابقين الرسل صلوات الله عليهم وسلامه، فإنهم خلفاء الله وفيهم سابق وأسبق، ثم الخلفاء عنهم على الاستقامة وفيهم سابق وأسبق، وذلك يتنزل حتى تبلغ الخلافة على الأهل والولد والخادم، ثم يتنزل حتى تبلغ الخلافة على النفس، فالظالم هو الذي يريد حرث الدنيا فيتظاهر بالخلافة على نفسه وغيره على غير الوجه المشروع المأمور به نظرًا إلى عاجل اللذة بظهور الربوبية، فإن الظلم وضع الشيء في غير موضعه، والمتقيد بدعوى الخلافة عن الرسل في غير موضعه، ومنهم المستخلف من قبله على مناجاه، ومنهم القائم مقام المستخلف على مناجاه، وهم الذين رضوا بالحياة الدنيا من الآخرة، فما لهم في الآخرة من خلاق ولا نصيب كما قال سبحانه: ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب، فيملأ سبحانه قلوب هؤلاء شغلًا ولا يحصلون على طائل؛ لأنهم استدبروا قبلة الحق التي أمروا بالتوجه إليها، إذ هم مأمورون بالسعي لكمالهم على الوجه الذي يحصل به كمالهم، فخالفوا وسعوا لظهور كمالهم في غير وقته قال ﷺ: «من آثر الدنيا على الآخرة شتت الله عليه شمله، وفرق عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب الله له منها، وقال: «من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث، همًا لا يفارق قلبه أبدًا،



وفقرًا لا يستغنى أبدًا، وحرصًا لا يشبع أبدًا» والمقتصد هو الذي لم تستهوه الشهوة، وأثر الأهم فالأهم، والأقرب فالأقرب، أعانه الله على كماله، ولم يشتغل باللذة الفانية عن اللذة الباقية، وقال لسان حاله:

منافسة الفتى فيما يزول      على نقصان همته دليل  
ومختار القليل أقل منه      وكل فوائد الدنيا قليل

عزف نفسه عن الدنيا وحماها عن شهواتها لما سمع من رسول الله ﷺ: «أن الله يعطي الدنيا من يحب ومن يبغض، ولا يعطي الآخرة إلا من يحب، وملوك الجنة من أمتي القانعون بالقوت يومًا فيومًا» ثم إنهم رأوا أنه ليس للملك ثمرة إلا القدرة على المطلوب، وإن ملك الدنيا عبودية وأنكاد ومع ذلك فإنه إن لم يكن على الوجه المشروع قطع عن الملك الصافي الذي فيه القدرة على المطلوب، فارتاض القوم في طريق الاقتدار على ملك أنفسهم لله حتى أقدرهم عليها، فكانوا هم الملوك الفقراء لما عزفت نفوسهم عن الدنيا، وتعلقت بالآخرة كما أشار إليه الشافعي رحمه الله بقوله:

على ثياب لو تباع جميعها      بفلس لكان الفلس منهن أكثرا  
وفيهن نفس لو تقاس ببعضها      نفوس الورى كانت أعز وأكبر  
وما ضر نصل السيف أخلاق غمده      إذا كان عضبا حيث وجهته برا

ولله در القائل قوله:

ملكيت نفسى فذاك ملك      ما مثله للأنام ملك  
فصرت حرًا بملك نفسي      فما لخلق على ملك

ومثله ما بلغنا أن محمود بن بويه لما ملك العراق سلم لفراشه ألف دينار وقال: اذهب بها إلى مدينة أصفهان إلى شارع السلطان ففي صدر الدرب بيت فيه عجز

وشيوخ أدخل فسلم عليهما، وأدفعها إليهما وقل لهما: ابنكما يقول لكما كيف أنتما من وحشة فراقه؟ فلما وصلهما وأخبرهما قالوا: خذ ما جئت به لك قال: أنتما فقيران وبكما حاجة إليه فقال الشيخ: إن غنى النفس باقى ثم أنش:

لا تزدريني وتزدرى خَلْقِي      فإنما الدر داخل الصدف  
فخذ لهذا الحطام وامض به      فالمال سهم والقلب كالهدف

فاشتغل هؤلاء بالملك الأخرى عن الملك الدنيوي علمًا بأن ملك النفس طريقة على أنه قد يحصل به المُلْكُ فهم مقتصدون ما لم يملكوا أنفسهم، فإذا ملكوها فهم سابقون قنعوا من التصدر والرياسة، بالتصدر والترأس على أنفسهم، وقالوا لا ينبغي للزمني الاشتغال بإعداد المأكولات، وإعداد آلة الحرب قبل الاشتغال باكتساب الصحة لأجسامهم التي لها يعد المأكول والآلة، فتركوا خير الدنيا لشرها احتماءً عن الدواء المضر، ونظروا في صلاح أنفسهم علمًا أنه لا ينفعهم صلاح غيرهم إذا فسدوا فقال قائلهم:

فما أبالي إذا نفسي تساعدني فانظر إلى ملك الأدنى إليك تجد وزنه بالعدل شرعًا كل أونة ولا تكن ماردًا تسعى لمفسدة إن ذقت فافهم ولا تعدل بملكك عن	على النجاة بمن قد فاز أو هلك في كل شخص على إفراده ملكًا واسلك به خلفه من حيث ما سلك في ملك ذاتك لكن كن فيه ملكًا هدى الرعية تدعى خير من ملك
--	---

فحصل هؤلاء على نصيبهم من الآخرة مكملًا مع نصيبهم من الدنيا قال سبحانه: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ) [الشورى: ٢٠]، وقال عليه السلام: «من أصبح وهمه الآخرة جمع الله همه، وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه، وآتته الدنيا راغمة»، ذلك لأنه مستقبل قبلة الحق التي وجهه إليها من طلب كماله فيبلغه الله سبحانه قصده مع حصول قسمته من الدنيا التي لا بد له منها، وقد ضرب الله سبحانه لنا في ذلك مثلًا في الظل، فإن مستقبل الشمس يحصل على نصيبه منها،

وعلى رؤيتها، ويلحقه ظله وحاصله منه ما تحت قدميه فيبلغه، ومستدبرها يفوته رؤيتها، ولا يدرك من ظله إلا ما تحت قدميه، فهؤلاء صنفان أحدهما؛ من ترك الأسباب والأنساب هرباً من الحساب، وتوكلأ على الوهاب فلا يرقون ولا يسترقون، كما قال ﷺ: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً غير حساب، قيل: يا رسول من هم؟ قال: الذين لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون» لم يأمنوا أنفسهم أن تخونهم في النظر إلى الأسباب دون المسبب فرفضوها اعتماداً عليه وتقويضاً إليه، والثاني؛ لم تقو نفسه على التوكل مطلقاً دون السبب فالذي قال له رسول الله ﷺ: «أعقلها وتوكل» فباشروا الأسباب، وتوكلوا في بلوغها على المسبب، ولهم شرعت الشرائع، وحددت الحدود ووضعت ظواهر النواميس، والسابق هو المتحقق بالعبودية محضاً المتوجه إلى الله في كل شيء، وبكل شيء، وعن كل شيء، وعلى كل شيء، ومع كل شيء، ولكل شيء، فهم يباشرون الأسباب عبودية محضة لمسببها، لا لأجل أنفسهم لأنهم في أنفسهم وعن أنفسهم، وفي شهواتهم، ومحوباتهم، ومكروهاتهم في جميع حركاتهم وسكناتهم، بحسب ما جعلهم مستخلفين فيه علماً بأنه سبحانه يريد من العباد دوام الاقتدار إليه والاضطرار في هذه الدار ألا ترى الرسول ﷺ يقول: إن الله يحب أن يرى المؤمن محترفاً» ويقول: إن الله يحب العبد المؤمن المحترف ولم تزل الرسل تحترف» قال سبحانه: (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ) [الفرقان: ٢٠]، وقال ﷺ: «لكل [نبي] حرفة ولي حرفتان الفقر والجهد، فمن أحبهما فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني».

فأما الجهد فحرفة ظاهرة، وأما الفقر فحرفة خاصة باطنة لا يعرفها إلا من ذاقها، وسنذكر طرقاً من حرف النبيين، وقد كان زكريا يعمل في الطين، وطالوت دباغاً، وكان داود صبيّاً فلاحاً عضدته يد السعادة بقتل جالوت، وكان زراداً أيضاً فتزوج ابنة طالوت الملك، وسليمان خواصاً، وأزر نجاراً وإبراهيم وموسى راعيين غنم، وإدريس خياطاً، وصالح تاجرّاً، وذو القرنين كان [أبوه] نساكاً نشأ يتيماً في بني حمير اسمه صعب بن جبل، وأمه هيلانة سمعت ببيت الصنائع فحملته إليه، وقالت: اختر يا بني ما تريد منها فوضع يده على تاج الملك فانتهرته مراراً فلم ينته، فقال

يونان الحكيم: أنت هيلانة، وهذا ابنك صعب بن جبل؟ قالت: نعم؛ فأخذ منه عهد للأمان له ولذريته، وقال له: أنت الملك الذي [تملك] شرقًا وغربًا، وأمر أمه بكتم أمره؛ فحملته إلى أرض بابل، ثم رأى ثلاث منامات في ثلاث ليال، رأى الأرض كلها خبرًا فأكلها، ورأى أنه شرب البحار وأكل طينها، ورأى أنه رقى السماء فعد نجومها ورماها إلى الأرض وركب الشمس وسحب ناصية القمر فلما اجتمع بالخضر فسر لها عليه فيشره بالملك الأعظم، وكان من وزرائه نبي وحكيم، وكذلك ابتداء ملك فرعون ونمرود، وبخت نصر، وكان أكابر الصحابة يحترفون، وعلى ذلك استمر أكابر الصحابة ورؤساء الصديقين حتى مر بعمر جماعة فقال: من أنتم؟ فقالوا: المتوكلون. قال: بل أنتم المتوكلون، إنما المتوكل من ألقى حبه في بطن الأرض، وتوكل على الله.

فباشروا الأسباب بقلوب سماوية فهم يسترقون، ويكتون، ويتداون ويداونون قال ﷺ: «إن الله لم ينزل داءً إلا وأنزل له دواء» وكل هؤلاء موصوف بملك النفس ومراتبهم في الفضل على قدر عموم ملكهم، وعلى قدر التحقق بالتصدر لله في مراتب الخلافة دينًا ودنيا وآخرة، ولولا ذلك لما رغب بها الأكابر ﷺ، وحثوا عليها من أمكنه من غير منازعة، ولم يأسفوا على فواتها إذا لم يمكنهم، لأنهم يعلمون مواقع همهم وأنهم يؤجرون بقدر نياتهم، ولما استخلف أبو بكر ﷺ [خطب الناس فقال]:

إذا أردت شريف الناس كلهم      فانظر إلى ملك في زى مسكين  
ذاك الذي عمت الدنيا فضائله      وذاك يصلح للدنيا ولدين

وإلى مثل ذلك أشار أمير المؤمنين على بن أبي طالب ﷺ بقوله:

إذا ما لم تكن ملغًا مطاعًا      كما ترضى فكن عبدًا مطيعًا  
وإن لم تكن الدنيا جميعًا      كما تختار فاتركها جميعًا  
هما سيان من نسك وملك      ينيلان الفتى شرقًا ربيعًا  
إذا ما المرء عاش بكل شيء      سوى هذين عاش بها وضيعًا

فإنما يطلب هؤلاء الملك ليتوجهوا به إلى الله سبحانه في كل شيء لا لرهبة ولا لرغبة لأنهم يطلبون الرضى المطلق كما قال موسى ﷺ: (وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى)

[طه: ٨٤] لم يكن عني ولا عن أمتي، وكما قال عمر في صهييب رضي الله عنهما: نعم الرجل صهييب لو لم يخف الله لم يعصه، يشير إلى أنه يعبد علمًا ببربوبيته، واستحقاقًا لعبوديته لا خوف عقابه ولا رجاء ثوابه، وذلك كله من فيض الكمال المحمدي قيل له: «وقد تورمت قدمه من القيام أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا»، فهؤلاء باعثهم على التصدر عند إمكانه كمال المحبة، وقوة الرغبة في كمال العبودية، وهؤلاء لا يطلبونه ولكن إن جاءهم قبلوه، فإن تمام العبودية في تمام ترك الاختيار:

منحتك الود لا أبغى به ثمنًا      إلا رضاك فواشوقًا إلى الثمن  
لما وهبت نفوسًا أن      مذ كنت في عماء من غير ذي  
موجدها      زمن

فهم يلاحظون الأمر الإلهي حيث توجهوا ألم ترى الخليل عليه السلام ترك جسده للنيران وماله للضيفان، وولده للقربان فتم له وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض « وعمر قتل ولده في الحد، وقد علمت أن شرف المنزلة والمال إنما يطلب للنفس والولد فمن جاء بنفسه وولده لله كيف يتعلق بغير ذلك على أنهم يجودون بأنفسهم وأموالهم في القربة إلى الله فكيف في أمر الله والرغبة في إرادة ذكر الله فكيف في ابتغاء مرضات الله كما بلغنا أن إبراهيم عليه السلام قالت فيه الملائكة: أيتخذ ربنا من نطفة أزرية خليلاً وقد أعطاه الله ملكاً عظيماً فأوحى الله عز وجل إليهم أن اعمدوا إلى أزهدكم وأرأسكم فوق الاتفاق على جبريل وميكائيل فنزلا إلى إبراهيم في يوم قد جمع فيه غنمه عند رابية حلب، وكان له أربعة آلاف راع، وأربعة آلاف كلب في عنق كل كلب طوق وزن من ذهب، وأربعون ألف غنمة جلابة، وما شاء الله من الخيل والجمال، فوقف الملكان في طرفي الجميع، فقال أحدهما بلذاذة صوت: سبوح قدوس؛ فجوابه الثاني: رب الملائكة والروح، فقال: [أعيدها] على، ولكما نصف مالي، ثم قال: أعيدها على ولكما مالي وولدي وجسدي، فنادت ملائكة السماء هذا هو الكرم فسمعوا مناديا من العرش أن الخليل موافق لخليله.

فأما أهل الأنفة والحمية فإنهم لما آنسوا من نفوسهم الذكية الاستعداد للنهوض بالأمر تعرض له منهم من تعرض أنفة عن نقص المنزلة وطمعاً في الالتحاق بالسابقين، كما قال معاوية رضي الله عنه: هموا بمعالي الأمور، فإن الأمور همم فإني هممت بالخلافة، وما كنت لها أهلاً فبلغتها، ومثل ذلك ما أوصى به ابنه يزيد فقال: يا بني إن فاتك الملك، فلا يفوتك المحراب، فهذا الطريق نال القوم مقاصدهم حتى رأينا الملوك يتقاطرن على أبواب الزهاد، وقد أخذ الفرزدق هذا المعنى حيث يقول:

إما ذباباً فلا تعباً بمنقصة      أو قمة الرأس وأحذر أن [تقع] وسطاً  
خير الأمور وأطراف له ربطت      لنسبته الحكم لما أن طغى فسطاً

ومثله قول الآخر :

إذا كنت لا ترجى لدفع ملمة      ولا أنت يوم الحشر ممن يشفع  
فعيشك في الدنيا وموتك واحد      وعود خلال في حياتك أنفع

فقل من حرص من هؤلاء على طلب الملك والخلافة فحفظ وقد ترك طلبه والتعرض له ومنهم من ترك مع علمه بفضله ورغبته فيه إيثاراً للسلامة فلما أعطيه أُعين عليه كما بلغنا عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه قال لمولاه مزاحم: يا مزاحم إني قد انتهيت الحج فهل عندك شيء قال: بضعة عشر ديناراً قال: وما تقع مني؟ ثم مكث قليلاً فقال له: يا أمير المؤمنين تجهز فقد جاءنا مال، وهو سبعة عشر ألف دينار من أموال [بني مروان] فقال: اجعلها في بيت أموال المسلمين، فإن تك حلالاً فقد أخذنا منها بكفايتنا، وإن تك حراماً فكفى ما أصابنا منها، قال مزاحم: فلما رأى عمر ثقل ذلك على قال: ويحك يا مزاحم لا يكبرن عليك شيء صنعته فإن لي نفساً تواقه لم تنق إلى منزلة فنالتها إلا تاقنت إلى ما هي أرفع منها حتى بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة وإنها اليوم قد تاقنت إلى الجنة.

**فصل:** استكشف لك ما قدمت لك مما معناه أن العالم بأثره إنسان كبير وروحه الإنسان الكامل من نوع الإنسان السفير الذي هو رابطة الإمداد والاستمداد فهو أعني الإنسان الكامل بمنزلة إنسان العين من العين بالنسبة إلى نظر المحسوسات ومن سواهم بمنزلة العين فمنهم من هو بمنزلة طبقات البياض، ومنهم من هو بمنزلة طبقات السواد، ومنهم من هو بمنزلة الأجناف والأشفار، ومنهم من هو بمنزلة الأهذاب، وبهذا المعنى نقول: أنه مرآة العالم كما سلف؛ فهمت بذلك أن العالم بأسره حي ناطق عالم ببارئه فمنه ما هو عالم بعلم الفطرة، ومنه ما هو عالم بالفكرة والكسب، ولكن حياة بعضه موت بعض، وموت بعضه حياة بعض؛ فإن الله سبحانه وتعالى ميز بعضه عن بعض كما سلف ليميز الخبيث من الطيب فحقيقة العالم واحدة كما أن حقيقة الإنسان واحدة يجمعها آدم عليه السلام، إذ هو مجموع الذرية كما سلف ثم ميز الله بعضه عن بعض ليميز الخبيث من الطيب، وجعل حياة بعض موت بعض؛ فقال سبحانه: **أَمْواتٌ غيرَ أحياءٍ وما يشعرون، وَسَمِعَ بعضهم صممٌ بعضٌ فقال: (قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) [الأنفال: ٢٠]، وقال: (صُمُّكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) [البقرة: ١٨]، وقال: (لَا يَفْقَهُونَ) [الأعراف: ١٧٩]، وقال: (لَا يُبْصِرُونَ) [الأعراف: ١٩٨]، وقال: (لَا يَعْلَمُونَ \* يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..) الآية [الروم: ٦، ٧]، ويكيفيك في ذلك قوله عز وجل: (لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) [الطلاق: ١٢]؛ فإنه لو لم تكن السموات والأرض من جملة الإنسان لم يكن آلة للعلم بإحاطة القدرة والعلم، ولذلك ربط التنزيل العزيز والسنة، معرفة الربوبية بمعرفة النفس فقال عليه السلام: «من عرف نفسه عرف ربه» وقال: «أعرفكم بنفسه أعرّفكم بربه»، وفي الإسرائيليات: اعرف نفسك يا إنسان تعرف ربك، وفي التنزيل العزيز: (نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ) [الحشر: ١٩]، وإنما ذلك من أن أسماء الله سبحانه كانت كنزًا قبل خلق الخلق، باطنة فإن الكنز هو المستور فلما أراد الله سبحانه أن يعرف خلق الخلق فعرفت أسماؤه، فالربوبية مثلًا إنما تظهر بظهور المربوب، والرازقية إنما تظهر بظهور المرزوق، والإلهية تظهر بظهور المألوه، والرحمانية تظهر بظهور المرحوم إلى سائر الأسماء فإن الأمانة التي عُرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن**

يحملنها هي السعة لمعرفة الله ﷻ كما أسلفناه فلم يوجد في السموات والأرض قبول لما قبله الإنسان بهذا التأليف الصوري إذ هو ثمرة جميع العالم وبرنامجه فهو يرى نفسه في العالم إذ العالم أجزاؤه ومراته، ويرى العالم في نفسه إذ هو مرآة العالم ويرى ربه بالعالم الذي هو نفسه من حيث هو كل العالم؛ فلذلك اتسع لما لم يسعه العالم ولذلك نزهه سبحانه ومدحه بعموم السمع والبصر بقوله سبحانه: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) [الشورى: ١١]، فهذه إضافة تشريف كقوله: (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي) لأن الإنسان هو مثله الذي أبدعه من العالم مماثلاً للعالم بأسره لا مماثلاً للحق بذاته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ثم قال: (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) يقول كل العالم آلة لسمعه وبصره، فهو السميع البصير لا غيره، إذ هو كل العالم فقد استبان لك أن الكاف أصلية ليست زائدة، والمعنى ليس مثل مثله شيء أي من كل الوجوه لأنه وسع الله، فإما من حيث هو مماثل للعالم فالعالم مثله، وإنما امتاز عن العالم بقبوله جميع أسرار العالم؛ فبهذا المعنى كان ميزاناً للعالم ألا تراه سبحانه يقول: (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) [الرحمن: ٧]، فالميزان الموضوع لمقابلة رفع السماء هو الإنسان الصغير من حيث هو مثلن، والأرض داخلة فيهن؛ فإن الإنسان غيب وشهادة فهو بغيبه قابل لعلم الغيب إذا علمه الله وزكاه، كما قال سبحانه: (عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا \* إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) [الجن: ٢٧]، وبظاهره قابل لعلم الظاهر فلا ينبغي أن تفهم من هذه الآية ما يفهمه المحجوبون عن أنفسهم بحكمة الطي والدس وتقول: ليس المخصوص بالاطلاع على الغيب إلا الرسل لقوله سبحانه: (إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَتَكَابُرَ بِذَلِكَ الْعِيَانِ وَنصوص القرآن والسنة، فإن الله سبحانه يقول: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) [فصلت: ٥٣]، ويقول: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) [الحجر: ٧٥] أي للمتفرسين ويقول الرسول ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه [ينظر] بنور الله»، وقال: «إن في هذه الأمة محدثون وعمر منهم»، ويقول: «المؤمن يرى بنور الله»

ولك أن تقول في هذا كله المراد بالمؤمن هنا الرسل، وبالمؤمنين الرسل فما تقول في الخضر عليه السلام فإنه ليس برسول يقيناً، وإن كان الحق عند أهل الله أنه نبي، وها



هو قد أخبر موسى بالغيب أنه لا يستطيع معه صبراً، واطلع على أمر السفينة والغلام والجدار وهو غيب، وكذلك ذو القرنين أخبرنا باندكك الجدار عند الوعد وهو غيب، وما تقول فيما تكرر في الآثار أن ابن عباس وسعداً وعائشة وحذيفة ؓ كانوا يرون الملائكة وهم غيب، وما تقول فيما تكرر في تمثل الملك لمريم وهو غيب، وفيما كانت تؤتى به من الرزق وهو غيب، وفي السامري حين رأى الملك قائماً عند موسى فقبض القبضة من أثره وهو غيب، وإذا كانت مريم صديقة وعلماء هذه الأمة كأنبيا بني إسرائيل، فكيف ينقصون عن درجة مريم، وقد أخبر التنزيل (إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أُولِيَائِهِمْ) [الأنعام: ١٢١] ، وقد كان من أمر النبي ﷺ مع ابن صياد ما كان وكان ابن صياد تنام عيناه ولا ينام قلبه، وقال له النبي ﷺ: **إني اختبأت لك خبأً وأضمر الدخان فقال هو الدخ فكيف يسع عاقلاً أن ينكر هذا وهو يشهده من نفسه ومن الحيوان بواسطة الحس وبغير واسطة.**

فأما ما هو بواسطة الحس فكما يدل عليه اختلاج الأعضاء واضطرابها وألمها لأسباب حدثت أو تحدث أفليس ذلك كشف؟ على اختلاف العادات وقد يصيب إنساناً اضطراب في الأعضاء، وألم لأسباب حدثت أو تحدث، وحك في بعض الأعضاء يرى ذلك كل أحد من نفسه.

وأما ما هو معه بواسطة الحس فكما يجد الإنسان من نفسه من الضيق في بعض الحالات، والنشاط في بعض ولا يعلم لذلك سبباً حتى يظهر له في المستقبل أنه كان فيما يحب، أو فيمن يحب أو فيمن يكره، أو فيما يكره شيء مما يحب أو يكره في ذلك الوقت، وكما يقع في النفس من التوقع لحدوث الحوادث فيكون كذلك حتى أن الشاة لتجد معنى في الذئب فتفر عنه، وهي لا تنفر عن الجمل وهو أكبر منه، وإن كانت لم ترهما قبل ذلك حتى أن الإنسان ليحس اللين بالعود غيباً في الماء ويميز بينه وبين الصلب لقرب المناسبة الوضعية، وقد أخبرنا الرسول ﷺ: **أن الواحد منا يشاك بالشوكة في رجله فيجد النبي ألمها،** ورأينا المتعاشقين يصيب أحدهما مرض؛ فيصيب الآخر ذلك بعينه، والإنسان الكامل روح العالم، ومن قرب منه كالأعضاء الرئيسة من المشاعر الإنسانية، وباقي العالم كسائر الصور الإنسانية، وليس من شرط

الإنسان أن يكون العالم كله بالنسبة إليه في هذه الدار شيئاً واحداً حتى يعقل بجميعة  
ويحس بجميعة في جميع الحالات، فإنك ترى صورة الإنسان فيها ما لا يحس به ولا  
يعقل به إلا بسبب تعقله بما يحس به كالشعر والظفر، وقد يعرض لبعض أعضاء  
الإنسان ما يجعله كالمنفصل عنه، وإنما الإنسان يخرج من بطن أمه كما ذكرناه عقل  
بالقوة لا يعقل شيئاً كما نص التنزيل ثم بالتربية والتزكية يصير عقلاً بالفعل، فليس منه  
عضو واحد إلا وهو مستعد لسعة القدرة الإلهية والعلم؛ [ولذلك] ترى الإنسان كما قال  
عليه الصلاة والسلام: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو  
يمجسانه» وإنما ينكر ما ذكرناه من حياة العالم ونطقه وعلمه، المحجوب الواقف مع  
حسه، حيث لم يدرك حياة ولا علماً باطناً عن الحس، فهو يريد أن يجعل حياة الأشياء  
وعلمها ونطقها على وتيرة واحدة، ولم يعلم أن المدركات تنقسم قسمين وكذلك  
المدركات أحدهما؛ ما له قوة التخيل يمسك بها صور المعلومات في علمه من  
المدركات التي يمكن تقيدتها بالصورة فيتخيلها من له قوة التخيل، ويعلمها من ليس له  
قوة التخيل بالعلم المجرد، إذ حقيقتها لا تقبل التخيل إذ ليست بجسم ولا قوة في جسم،  
والثاني ما له علم مجرد عن التخيل كما ذكرناه فيعلم الأشياء علماً مجرداً وما لا يمكن  
تخيله بصورة فلا يمكن من له قوة التخيل تخيله بل يعلمه غير متخيل.

واعلم أن الموصوف بالعلم ينقسم أيضاً إلى ما بعضه حقيقة اكتساب العلم  
فيظهر علمه للمكتسبين وإلى مفطور على العلم لا تعطيه حقيقة اكتساب علم إلى علمه  
عن علم المكتسبين للعلم فمن أجل ذلك اعترفوا بحياة النبات وأنكروا حياة الجماد  
وجعلوا عقل الحيوان غريزياً، وأنكروا علم الجميع، فضلَّ سعيهم (وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ  
يُحْسِنُونَ صُنْعًا) [الكهف: ١٠٤] فنبههم سبحانه، ونبهتهم رسله بما اهتدى به من اهتدى  
وضل به من ضل فمن ذلك قوله في تنزيله: (تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ  
فِيهِنَّ) [الإسراء: ٤٤] فقوله: (وَمَنْ فِيهِنَّ) رد على من زعم أن المراد بذلك تسبيح من  
فيهن وأنه حذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه، كما قالوا في قوله: (وَاسْأَلِ  
الْقَرْيَةَ) [يوسف: ٨٢] أن المراد به واسأل أهل القرية، ثم قال سبحانه: (وَإِنْ مِّن شَيْءٍ  
إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) فأثبت تسبيح كل شيء ثم رد على الذين يزعمون أنه تسبيح بلسان

الحال فقال: (وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) فإنه لو كان بلسان الحال لكانوا يفقهون، ثم قال: (إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) فحليم فعيل بمعنى فاعل من الحلم أي عمن تأول هذه الآيات بهذه التأويلات (غَفُورًا) فعولا من الغفر الذي هو الستر لتسبيح الأشياء عمن لم يرتض اطلاعه عليه، وكذلك باقي الآيات كما أخبرنا عن السماء والأرض بقوله: (إِنِّي طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) [فصلت: ١١] وكذلك قوله سبحانه وتعالى: (الْمُ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ...) الآية [الحج: ١٨]، ونحو ذلك من الآي، وفي الإسرائيليات: «لأسألن القرآن عن الجماء، ولأسألن العود لما خدش العود، ولأسألن الكف لما صافح الكف أفي الله، أم في غير الله»، وفي الحديث الصحيح من هذا كثير مثلما أخبر به ﷺ من: نداء الأرض، ونداء التراب، واختصام الجنة والنار، وحديث القبر، ومن أن الشمس تجذبها الملائكة على عجلة في جبال من برد، وأنهم يسمعون لها تعبداً وتجبداً، وقوله للقمر وقد نظر إليه في الكسوف: اللهم فرج عنه، وإنما يفرج عن مغموم، وقوله: يشهد للمؤذن مد صوته من رطب ويابس، وما جاء من شهادة الأعضاء، ولا يشهد عن سمع إلا سميع، ولا عن علم إلا عليم، وقوله في الميت: ترفرف روحه فوق النعش تقول روح السعيد عجلوا بي، وروح الشقي إلى أين تذهبوا بي يسمعه كل شيء خلقه الله إلا الثقلين، ولا يسمع إلا حي وعافل، وقوله: تقول الشجرة لأختها هل كان كل من مر بك ذاكرًا لله؟ وهذا لا يكون إلا من عالم عاقل ناطق، وكقوله: إن الشجرة لا تقطع إلا إذا غفلت عن ذكر الله والسمكة لا تقع في شبكة الصياد إلا إذا غفلت عن ذكر الله، وما جاء من حنين الجزع إلى رسول الله ﷺ، وتسبيح الحصى في كفه وأكف أصحابه، وسلام الحجر عليه، وكلام العضو المسموم، وهذا جبل يحبنا ونحبه، وأثبت أحد، وما جاء من سؤال البهائم والقصاص بينها، وقوله سبحانه: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ...) الآية [الأنعام: ٣٨]، فأخبر أنها أمم أمثالنا، وأثبت لها حشرًا إلى ربها، وفي الحديث: «وما من دابة إلا وهي مصيخة بأذنها يوم الجمعة شفقًا من الساعة» وحديث: ما أنتم بأسمع منهم، والشجر والحجر هذا كافر اقتله، وإخبار الفخذ، وعذبة الصوت بما صنع أهله، وكـ

في التنزيل والسنن من ذلك إن اعتبرته كل ذلك يثبت لك حياة العالم ونطقه وعلمه، وكيف وأنت ترى الله سبحانه قد جعل بعضه متأثراً ببعض ومن بعض، فبعضه جاذب لبعض إلى نفسه، ومن بعض، وإلى بعض، وبعضه نافر من بعض، ومنفر لبعض عن بعض، وبعضه موافق لبعض وموافق بين بعض وبعض ومخالف لبعض ومخالف بين بعض وبعض وممتزج ببعض ومازج لبعض ببعض، وقاطع لبعض عن بعض، ومنقطع عن بعض ومتصل ببعض، وواصل بعضاً لبعض بحيث لا يندفع العلم بوجود ذلك بشك ولا شبهة، فمنه ما تأثيره معقول، ومنه ما تأثيره محسوس، ولولا هذا التأثير والتأثير، ما امتاز بعضه عن بعض بأنواع التآلف والتنافر والاجتماع والافتراق، والجمع والتفريق، والانحلال والانعقاد، والهيئات والألوان، والصور والأشكال، والزيادة والنقصان، والتسخير والقهر، وغير ذلك مما يحدث بين الشئيين، أو في أحدهما أو منهما أو من أحدهما، أو بينهما أو عنهما أو عن أحدهما إما بالمناسبة أو بالصفة أو بالمعنى أو بالصورة أو بالطبع أو بالوضع أو بجميع ذلك، وهذا التأثير والتأثير هو الذي حير العقول وحجبها عن الألوهية حتى لقد انجبت عنه بشدة ظهوره، واستغربته حتى صار كالمستغرب عندها مع أنها به، ومنه نشأت على ذلك كل العالم علواً وسفلاً وصورة ومعنى وهيئة وشكلاً وصفة واسماً، فمن ذلك الخواص المعلومة بين أمزجة الحيوانات، ومطعوماتها ومشتهياتها، وبين [طباع الهوام] ومألوفاتها ومكرهاتها، وما جبلت عليه الحيوانات من اكتساب لنفعها ودفع مضارها حتى أن الشاة لتدرك معنى في الذئب يتقاضاه النفور عنه، وإن لم تكن تراه قط قبل ذلك، ولا تنفر عن الحيوان الذي هو أكبر منه، فإن الطفل يهتدي إلى الضرع، وعروق الشجر تهتدي إلى رطوبات الأرض، ونفوس البشر تستروح الطيب وتكره ضده، والجعل بالعكس، والمؤثر واحد والتأثير مختلف بحسب القوابل، كما ترى النفخة واحدة تطفئ السراج، وتشعل الحشيش الذي فيه النار، والماء ينزل من السماء واحداً يخرج به ثمرات مختلف ألوانها بحسب القوابل والتنزيل العزيز (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا) [البقرة: ٢٦] ومن ذلك السمندل والنعام يألفان النار ويأكلانها، ويتضرر بها غيرهما من الحيوان والجماد إلا حجر الياقوت لا تضره، وغيره من

الأحجار تكلسه وتكسره، ورأيت السمندل يُعمل من أوبارها مناديل لا تحرقها النار وبها تُغسل، وعظم النمر إذا غمس في القطران فيُجعل في قدر يغلى يسكن غليانها، ويضع الإنسان يده فيها فلا يجد لها حرًا، وحجر الزمرد إذا قرب من الحية عميت لوقتها، وبعض الحيات إذا نظرت إلى الزبرجد ماتت لوقتها، وحجر الشبث يحل النفخة، وفي براري مصر حيات إذا نظرت إلى الإنسان مات لوقتته، وحيات إذا سمع الإنسان صفيرها مات، ومعلوم أن رجل ضرب حية بحجر فعضت الحجر فمات الضارب، وعظم الفأر يجعل ليلة مع سنة القط فيصبح مكسرًا، وأمعاء الذئب تجعل في جلد الشاة فتمزقه بليلة، والدف من جلد ذئب يضرب به بين الدفوف من جلود المعز فتتخرق، وخشب العناب يُسقى خل الخمر ثلاث ليال [فيثقب] الحجر بغير تعب، والخل والليمون يجعلان على اللبن وهو يغلي فيفرق بين الماء والجبن ولأهل الصناعات عقد وتحليل وتقطير وتكليس وتصعيد، والنور سبب لاستضاءة أبصار الحيوان، وهو سبب لظلمة بصر الخفاش، وفي الهند أحجار وأشجار إذا وقع عليها عين الإنسان أو حيوان سجد لها طوعًا أو كرهًا، وفي الصين أحجار إذا اصطكت نزل المطر، وأدوية القيء والإسهال معلومة في جذب الأخطا، وللسحرة حشائش يبخرون بها في البيوت فتحل السحر والعقود، وحشائش يبخرون بأوراقها على اسم من يريدون فيأتهم طوعًا أو كرهًا على الأثر، واليبروح نبت على صورة الإنسان من علقه عليه في ساعة معينة لو مر بحجر لتبعه الحجر، ونبت ينبت على البلوط يُسمى حب العصفور يُبخر في البيوت لطرد الشياطين، وإبطال السحر المدفون كالمشاقة من الشعر المعقد، وبرادات الأمشاط والأوتار المعقدة، وفيها سحر رسول الله ﷺ وشجر لا ينقطع أوراقه باستواء أبدًا، يفرق بين الزوجين على هيئة معلومة عندهم، ومن الأدهان ما يمنع تأثير النار في الأبدان إذا طُليت به، ومن الأحجار ما إذا وُضع في التنور تساقط خبزه، ولو استقصينا هذا الباب لطال، فمن ذلك كله ما تأثيره محسوس، ومنه ما تأثيره معقول، وكلاهما منه ما تأثيره بالفعل والعزم والاختيار كالإنسان والحيوان، وما تأثيره بالعزم والفكر كالإنسان والملك، وما تأثيره بالعزم دون الفكر كالإنسان والحيوان في الإصابة بالعين، وقد أثر الحيوان بالعزم كالحية التي عضت

الحجر، وما تأثيره بالطبع والخاصية كالأدوية المسهلة والقابضة، وكحجر المغناطيس في جذب الحديد، وتقوية أبدان المعالجين والمصار عين والحمالين وأهل الأعمال الشاقة، وكالثوم في إبطال جذب حجر المغناطيس للحديد ورده بالدم، وكالألوان الحادثة بين المختلفات والمتجاورات كالنورة والتنبل والعفص والزاج والنيل والزنجار وشبه ذلك، وما تأثيره بالطبع والخاصية والحركة كالكوكب عند من يراها كذلك، وما تأثيره برائحته كالطيب وعكسه فمن ذلك ما هو مستغن في تأثيره عن كون آخر، ومنه ما هو متوقف على كون آخر كالجماذ في القطع والكسر والارتفاع والانحطاط في الضرب ونحوه، كالأشياء المؤثرة في الحس، فيؤثر الحس في الذهن، فيؤثر الذهن في النفس، فتؤثر النفس في الجسد، فيؤثر الجسد في كون آخر كالتأثيرات الحاصلة عن تأثير النفس عن العلم الحاصل عن الحواس الخمس، كمن يرى في طريقه درهماً أو ديناراً أو ذنباً فيؤثر الدرهم أو الذنب بواسطة النور، ورؤية البصر في الذهن العلم به، وينفع الدرهم ويضر الذنب، ويؤثر العلم في النفس الشوق والنفور، ويؤثر الشوق أو النفور تحريك الجسد لطلبه، أو للهرب منه بتصورات مختلفة باختلاف النفوس، فواحد باعته على طلب الدرهم نفاسة جوهره وخاصيته، كالفأر والإنسان والحيوان فبينهم وبين الذهب محبة، وآخر تبعته الرغبة في ادخاره لوقت الحاجة، وواحد تبعته عزة ما عليه من أسماء الله فيرفعه من ذلك، وواحد يرفعه لما وضعه الله فيه من السر إذ جعله قيمة الأشياء، وآخر يرفعه لما جاء عن الرسول من النهي عن إضاعة المال، وكذلك في الذنب فواحد يبعته على الهرب محبة نفسه، والخوف من الذنب، وآخر يبعته على ذلك الخوف من الله ﷻ، فإنه جعل نفسه أمانة عنده وأمره ألا يلقي بها إلى التهلكة، وآخر يبعته امتثال الأمر إلى غير ذلك من التصورات، وكم من يهرب من الذنب ويرفع الدرهم للمعاني التي ذكرناها جميعها وزيادة عليها وهو أكملهم، ومن هذا القسم توقف أفعال أهل السحر ومن قاربهم، وأهل الكهانة في بعض أعمالهم على الأوقات المخصوصة، والحركات المخصوصة في الأرصاد، ومنه توقف تأثير نفوس المعزمين على ما يتلون ويخرونه، ومنه توقف الدعاء لعموم الناس على الساعات التي نبه عليها الرسول ﷺ وأشباه ذلك، والله اعلم.

## فصل

فمتى استبان لك جميع ما ذكرناه؛ استبان من حيث أن الإنسان ثمرة العالم، وكل العالم لما ظهر لك أن فيه الاستعداد لجميع مراتب العالم، وجميع صفات العالم الرفيعة والوضيعة فاستكمالها مراتب العلم بالتزكية، وكذلك القرب من الكمال على استواء الطرفين أو تقاربها، وانحطاطه عن استكمالها بالدس وبقاء القبض والطبي؛ فيستبين لك أن الإنسان ما استشرف شيئاً ولا توجه إليه إلا وفيه له راحة، إما لخاصية تستدعيه وقبول له واستعداد أي شيء كان صورة ومعنى، ولا يفر عن شيء إلا وله فيه تعب لخاصية تضاده وتنافره، ولا يقبله علم ذلك من علم، وجهله من جهله، ولكن ظهور ذلك قد يكون قريباً وقد يكون بعيداً، يظهر بالتربية والتدريج، كما ينمو الزرع والشجر بالزراعة والغرس والتربية، ولكن الإنسان خلق من عجل، فهو يقطع في كل شيء أن الأمر على ما قد فهمه وتوهمه، ويظن بنفسه الكمال، وذلك لسر الطبي، وكمال الاستعداد لجميع الصفات والمراتب، وإلى ذلك أشار سهل رحمه الله بقوله: للنفس سر ما ظهر ذلك السر إلا على فرعون فقال: (أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى) [النازعات: ٢٤]، وبقوله: إن للربوبية سرّاً - وهو أنت يخاطب كل إنسان - لو ظهر لبطلت الربوبية، ولذلك اختلفت الهمم واختلفت المقاصد، واختلفت صفات الإنسان؛ لأن الإنسان منطو على جميع أسرار العالم، قابل لجميع الصفات والمراتب، ولذلك اختلف الناس في تأثير العمل، فمن [زاعم] أن سعادة الدارين مكتسبة أبداً لقوله سبحانه: (وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى) [النجم: ٣٩]، وقوله: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) [العنكبوت: ٦٩]، وأشبه ذلك في التنزيل والأخبار، ومن [زاعم] أنه لا طريق للكسب إلا السعادة في الدارين، وإنما هي الأقدار حاكمة لقوله سبحانه: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) [الصافات: ٩٦]، وقوله: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) [الحجر: ٢١]، وأشبه ذلك، فهذا الاختلاف من جملة ما اقتضته أسرار العالم من الصفات، ووجه الحق الجمع بين القولين، فنقول أن الأقدار حاكمة على الأعمال، والأعمال من جملة الأقدار، وهي مؤثرة في بابها، ظاهرة التأثير بحيث لا يندفع ذلك بشبهة، ولا مدخل للأعمال بالتأثير في غير بابها، وإنما الأثر للقدر المحض كالزلازل والصواعق،

ونزول المطر بغير دعاء ولا استسقاء ولا شبهة في ذلك، وما يشبه ذلك، فهذه الأعمال تنشر مطوي الأسرار، فتفهم ما ذكرته لك في سر القدر فهو مجموع ما فصله الحكيم في كتاب "كليلة ودمنة" في الباب الذي وسمه (بباب ابن الملك وأصحابه) وبهذا المعنى نزلت الكتب، وشرعت الشرائع، وجاءت السنن وله ضربت الأمثال، وجاءت المواعظ والوصايا والخطب، ولأجله احتيج إلى الأنبياء والملوك، وأخذ العلماء والوزراء والإخوان والأصدقاء والأعوان، ونُذِب إلى الاقتداء ولولاه لم يحتج أحد إلى شيء من ذلك، ولاكتفى كل واحد بنفسه، وعلى هذا المعنى ترتب الجزاء بالثواب والعقاب، والمدح والذم، فما رأيناه أثنى على أحد في كتابه إلا بعمل، ولا ذم أحداً إلا بعمل، ولا وعد إلا على عمل، ولا أوعد إلا على عمل، قال سبحانه: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) [النساء: ٩٣]، وقال: (فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ) [الأحقاف: ٢٠]، وقال: (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ) وقال: (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) [البقرة: ٢٨٦]، وقال: (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ) [محمد: ٧]، وقال: (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ...) الآية [النساء: ١١٥]، وقال: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا \* وَيَرْزُقْهُ ...) الآية [الطلاق: ٢، ٣] فجعل التقوى سبباً لذلك، وهي عمل، وقال ﷺ: الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني»، وقال: «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك، ولا تعجز فإن غلبك أمر فقل قدر الله أو ما شاء الله، وإياك و[اللو] فإن [اللو] تفتح عمل الشيطان»، وللمبالغة في الحث على العمل أمرنا بموافقة الأمجاد، ومجانبة الأضداد قال سبحانه: «وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ»، وقال لسيد المرسلين: (وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ...) الآية [القلم: ٥١]، وقال: (وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا) [الإسراء: ٧٤]، ومن كاد فقد قارب هذا، وهو سر الوجود فما ظنك بنفسك، وقال سبحانه: (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) [آل عمران: ١٥٩]،



وقال: (فَبِهَذَا هُمْ أَفْتَدَهُ) [الأنعام: ٩٠]، وقال: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ....) الآية [الكهف: ٢٨]، وعظم أمر الضد حتى قال: (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ) [المائدة: ٥١]، وقال ﷺ: «المرء من جلسه المرء على دين خليله»، وأمرنا بمزاحمة العلماء ومجالستهم والنظر في وجوههم حتى قال عمر رضي الله عنه: جاء رجل إلى النبي ﷺ وأنا شاهد فقال: يا رسول الله إذا حضر مجلس عالم، وحضرت جنازة أيهما أحب إليك أن أشهد؟ فقال ﷺ: «إذا كان للجنازة من يتبعها ويدفنها فإن حضور مجلس عالم خير من حضور ألف جنازة، ومن حضور ألف مريض عائداً، ومن قيام ألف ليلة للصلاة، ومن ألف حجة سوى الفريضة، ومن ألف غزوة سوى الواجب تغزوها بمالك ونفسك، وأين تقع هذه المشاهد كلها من مشاهد عالم، أما علمت أن الله تعالى يطاع بالعلم، ويُعبد بالعلم، وخير الدنيا والآخرة كله مع العلم، وشر الدنيا والآخرة كله مع الجهل، فقال الرجل: فقراءة القرآن؟ فقال: ويحك وما قراءة القرآن بغير علم، وما الحج بغير علم، وما الجمعة بغير علم، العلم يفسر ذلك كله وينوره، والعلم أعلى من ذلك كله أما بلغك أن السنة تقضي على القرآن، ولا يقضي القرآن على السنة»، وقال عليه السلام: «لا تجالسوا كل عالم إلا عالم يدعوكم من خمس غلى خمس من الشك إلى اليقين ومن الكبر إلى التواضع وكمن الرياء إلى الإخلاص ومن الرغبة إلى الزهد ومن العداوة إلى النصيحة»، وقال أمير المؤمنين على بن أبي طالب - رضي الله عنه وكرم وجهه - :

لا تصحب أبا الجهل	وإياك وإياه
فكم من جاهل أردى	حليماً حين آخاه
يقاس المرء بالمرء	إذا ما [المرء] ماشاه
وللشئ على الشئ	مقاييس وأشباه
[وللقاب على القلب]	دليل حين يلقاه

ومثله قول الآخر:

لا تصحب الكسلان في	كم صالح بفساد آخر
--------------------	-------------------

حالاته \_\_\_\_\_  
 يفسد والجمر يعلق في الرماد  
 عدوى البليد إلى الجليد  
 سريعة

فكلما تسمعه حث على الأعمال، وبيان لتأثيرها ولولا ذلك لما أمرنا ونهينا،  
 وقد جمع أمير المؤمنين علي عليه السلام في هذه الأبيات القليلة معاني جزيلة مما سبقت  
 الإشارة إليه حيث يقول:

<p>ومن [رام] العلا سهر الليالي          يخوض البحر من طلب اللآلي          أحب إليّ من منن الرجال          فقلت العار في ذل السؤال          فنصف العمر تمحقه الليالي          يميناً ينقض أم من شمال          وشغل بالتفكير والعيال          وقسمته على هذا المثال</p>	<p>بقدر الكد تكتسب المعالي          تروم العز ثم تنام ليلاً          لنقل الصخر من قمم الجبال          وقالوا للفتى في الكسب عار          إذا عاش امرء [ستين] عاماً          ونصف النصف يمضى ليس          يدري ونصف النصف أمراض          وشي _____          فحب المرء طول العمر قبح</p>
---	---

واعتبر أحوال الرسل الذين هم أكمل البشر فسيدهم يقول: «إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله [في اليوم] أربعين مرة»، أفليس ذلك مؤثر، وتحنّث في حراء حتى قال المشركون: إن محمداً عشق ربه، وحنّثنا على ذلك فقال: «من أخلص الله أربعين صباحاً؛ تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»، وكان موسى عليه السلام إذا أراد خطاب الله سبحانه تحنّث في عريش أربعين يوماً، ثم يرقى إلى المخاطبة كما أشار إليه التنزيل (وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) [الأعراف: ١٤٢]، وأقام قبل ذلك في تربية شعيب عليه السلام، وخدمته السنين التي أخبرنا الله تعالى حتى بعثه سبحانه، فقل لشعيب: أن تلميذك يزعم أنه يخاطب الله ويكلم

فأحضره، وقال له: يا موسى تزعم أنك تخاطب الله ﷻ؟ قال: نعم. قال: فيما نلت هذا؟ قال: بسهم السعادة. قال: فمن أي جهاتك تسمع كلامه؟ قال: من جهاتي الست. قال: يا بني لكل نبي معجزة فما معجزتك؟ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين. فقال بعض الحسدة: إن عصى سرنديب إذا نُقلت إلى هذه البلاد تكون حيات، فقال له موسى: خذها إليك فإن كان كما تقول فستكون وإلا فتبطل، فبهت الرجل وبطل، فقال شعيب: اتبعوه إنه جاء بخرق العادة، وقد سمعت بعبادة داود ﷺ وصبر أيوب وغير ذلك من أعمال الرسل اجتهد تنل كل مطلوب، واستوف تأمل هذه الفصول كما سقتها لك، وكرر النظر فيها يستبين لك إمكان كل مطلوب، تاقت نفسك إليه من شريف ووضع، ويتشجع جنانك واجتهد ألا تنهيب لسؤال شيء من أنواع الخير وإن بُعد عليك، فليس يبعد عليك كل ما يمكن أن يكون لبشر مما لم يقع النص بانسداده، إذ المنازل مشتركة والإنسان قابل لجميع مراتب العالم إلا ما وقع به العلم القطعي بالكشف المحقق، والإخبار الإلهي بأنه ليس خلقك وأنه قد جيز دونك، واعلم أن نفسك لا تقصد شيئاً وتتوق إليه إلا لباعث فيها يقتضيه كما أسلفت لك وأنه لا يؤتى عليك في انقطاعك عما توجهت إليه إلا من قبل القواطع التي نبهتك عليها في تأثير العالم بعبعضه ببعض، وأعظمها حلول الشك فيك، ولست ألومك مطلقاً فقد سأل الخليل ربه أن يُريه كيف يحيى الموت، أعني ليطمئن قلبه حتى قال سبحانه: (قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنِ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لَّا يَظْمِنُ قَلْبِي) [البقرة: ٢٦٠]، وقال رسول الله ﷺ: «نحن أولى بالشك من إبراهيم»، وكان ﷺ بعد أن أعلمه الملك بنبوته ورسالته إذا تأخر عنه الوحي يذهب ليلقى نفسه من شواهد الجبال حتى يترأى له الملك فيقول له: يا محمد إنك لرسول الله حقاً فيسكن روعه.

وكيف ألومك وقد علمت قصة الخضر وموسى، ولكن الشك العارض للرسول هو من كمال العلم، فإنهم كلما ازدادوا علماً بالله تعالى ازدادوا علماً بأن له خفيات أسرار في العالم كما قال الخليل ﷺ: (وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا) [الأنعام: ٨٠]، يقول: إلا أن يكون في علم ربي [مسألة] تحكم في، فينازلي خوفه، فلذلك قال بعده: (وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا) [الأنعام: ٨٠]، ولكمال العلم يبقى

الخوف على الرسل بعد العلم بالسعادة، ولكمال علم محمد ﷺ توقف في أمر عائشة - رضي الله عنها - حتى نزلت براءتها.

ولما قال لابن صياد: «أتشهد أني رسول الله؟ قال: أشهد أنك رسول الأميين». وقال ابن صياد: أتشهد أني رسول؟ قال: «آمنت بالله وملأته وكتبه ورسله» كل ذلك حذرًا من أن يكون لله سبحانه فيه خفي علم.

وقال في بدر: «إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد بعد اليوم» وكان وعده بالنصر، وإنما ألومك على الوقوف مع الشك، وأنت تسمع الرسول يقول: «تعلموا اليقين فإني متعلم معكم»، وليس تعلم اليقين إلا بملازمة الأعمال على وجهها، فأحكم النظر في مقصدك، واسع له بالوجه اللائق به، واعلم أن الأسباب هي الباب، وأن الله ﷻ إذا أراد أمرًا؛ هيأ أسبابه، ولقد أحسن القائل:

توكل على الرحمن في الأمر كله ألم ترى أن الله قال لمريم ولو شاء [أحنى] الجزع من غير هزها	ولا ترغبن يومًا عن الطلب وهزي إليك الجزع يساقط الرطب [ولكنما الأشياء تجري لها السبب]
---	--

واحكم سد أبواب فساد العمل، وأحسن الظن بالله ﷻ.

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه فإن تم بالسعد المنى تم سعده	وليس عليه أن يساعده الدهر وإن غلب المقدور كان له عذر
--	---

واعلم أن من أقوى دلائل التحصيل دوام الطلب، وإحكام السعي وكثيرًا ما كان الصديق ﷺ يتمثل بهذا البيت:

لو لم ترد نيل ما أرجو	من جود كفيك ما علمتني
-----------------------	-----------------------

الطالب	وَأَمْلِه
--------	-----------

فلا يصعبن عليك كثرة العوائق، واستبعاد المقاصد؛ مع حسن الاستعداد بالعمل اللائق، والأدب اللائق، ودوام السعي على وجه السعي:

مع الخمول بأن ترقى إلى الفاك في الأرض إذ صار إكليلاً على الملك	لا تيأسن إذا ما كنت ذا أدب بيننا ترى الذهب الإبريز مطروحاً
---	---

فقد سمعت ما مر بك من قصة أمية بن الصلت، حيث كان يترشح للنبوة قبل مبعث رسول الله ﷺ، حتى كان من أمره أنه قال لأخته: ها أنا أنام فاصنعي لي طعاماً، فلما نام قالت: فبينما هو نائم، إذ رأيت، وقد نزل طائران من النافذة، فشق أحدهما صدره، ثم أخرج نكتة سوداء، فقال أحدهما للآخر: أوعى؟ قال: نعم، وعى علوم الأولين والآخرين، فقال: أدرك؟ فقال: لا، فقال: رد فؤاده إليه، فليست النبوة إليه؛ إنما هي لسلالة عبد المطلب، قالت: فلما انتبه أخبرته بالقصة فبكى، وقال متمثلاً:

أغض عيني والدمع سابقها أوتى براءة يقضي ناطقها النار [تحيط] بهم سرادقها أبرار مصفوفة نمارقها أعمال لا يستوي طرائقها جنة حفت بهم حدائقها نعمهم إذا لبسوا مرافقها همت بخير عاقت عوائقها جنة دنيا والله ماحقها	باتت همومي تستسري طوارقها مما آتاني من اليقين ولم ممن تلظى إليه واقدة أم أسكن الجنة التي وعد الـ لا يستوي المنزلان ثم ولا الـ هما فريقان فائز داخل الـ وفرقة تدخل الجحيم فسا تعلم هذه القلوب حتى إذا وصدها للشقي عن طلب الـ
--	---

عبد دعا نفسه فغالبها ما رغبت النفس في الحياة وإن يوشك من فر من منيته يقودها قائد إليه ويحـ إن لم تمت غبطة تمت هـرمًا	يعلم أن الإله وامقها عاشت قليلاً فالموت لاحقها في بعض غراتها يوافقها دوها حثيثاً إليه سائقها للموت كأس والمرء ذائقها
--	--

ثم انصدعت كبده فمات، فانظر إلى أين بلغ به أمله لولا شركه، فلا يُمرض همتك النظر إلى الأسباب الظاهرة.

وقولنا: إن الأسباب الظاهرة هي الباب، فإن الله يفعل ما يشاء، كما يشاء، لما يشاء، بأسباب ظاهرة، وأسباب باطنة، فهو يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويهدي من يشاء، ويضل من يشاء، موسى عليه السلام قال: (رَبِّ أَرْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ) فأجيب: (لَنْ تَرَانِي) [الأعراف : ١٤٣]، ومحمد صلى الله عليه وسلم أقيم من منامه، وقيل فيه: (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) [النجم : ١١]، وموسى: (قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي) [طه : ٢٥]، وقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم: (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) [الشرح : ١]، فكم من واثق بقومه، واستحكام دولته، صار عليه من لا [يعبأ به] فحوله، فكم مستبعد حصول نيته لبعد الأسباب، فساقها الكريم الوهاب.

وسأسوق إليك جملة كلية تعم مقاصد أهل الدارين، فإن الدنيا قنطرة الآخرة، لتستقوي بها همتك، وأقص عليك من أحوال أهل المطالب ما تتأيد به عزيمتك، إن شاء الله، فإن الفضائل والمراتب الدنيوية مثلاً ليست بالمال، ولا بالرجال، ولا [بالثروة] ولا بالكثرة، فكم من فئة قليلة، غلبت فئة كثيرة بإذن الله، وكم من مستضعف انتصر، وكم من ملك مستقر، استفزه مملوك، فاعتبر أحوال أرباب الدول، سعيداً وشقيّاً وبين ذلك، فقد أخبرك التنزيل بسورة ابتداء ملك يوسف الصديق، أوله الجُب، ثم البيع، ثم السجن، وأخبرتك الآثار: أن داود كان صبيّاً فلاحاً، عضدته يد السعادة بقتل جالوت، فتزوج ابنة طالوت، وقد كان طالوت دباغاً، وكان سليمان خواصاً، وداود زراداً، وأزر نجاراً، وإبراهيم راعي غنم، وموسى كذلك، وقد سمعت بأول أمره في التنزيل،

وقد كان إدريس خياطاً، وصالح تاجرًا، وذو القرنين ابن نساج نشأ يتيمًا في بني حمير، كان يُسمى صعب بن جبل وأمه هيلانة، سمعت ببيت الصنائع، فحملته إليه صغيرًا، وقالت: يا بني اختر ما تريد، فوضع يده على تاج الملك، فانتهرته مرارًا، فلم ينته، فنظر إليها تومان، فقال: أنت هيلانة، وهذا ابنك صعب بن جبل؟ قالت: نعم، فأخذ عهد ذو القرنين، وزمامه على أني وذريتي في أمانك، وقال: أنت الملك الذي تستجب شرقًا وغربًا بطريق التملك، وكتمت أمه أمره، وحملته إلى أرض بابل، فكان من بدء أمره، وشواهد سعادته ثلاث منامات في ثلاث ليل، **الأول**: رأى الأرض خبزًا فأكلها، **والثانية**: رأى أنه يشرب البحار، وأكل طينها، **والثالثة**: رأى كأنه رقى إلى السماء فعد نجومها، ورمى بها إلى الأرض، وركب الشمس، وسحب ناصية القمر، فلما اجتمع بالخضر عليه السلام فسرّها عليه، فبشره بالملك الأعظم، وكان من وزرائه نبي، وحكيم، وقد سمعت بابتداء ملك نمروذ، وفرعون، وبختنصر، فتأمل سير الرسل - عليهم السلام - وسير الملوك وكتب التاريخ والآثار والأخبار، ترى عجبًا عجيبيًا، وإن أمعنت التأمل في بدايات الرسل - عليهم الصلاة والسلام - سيما سيدنا محمد ﷺ، وما لقي من قومه ويطمه، رأيت العجب.

وفيما ضربت لك من الأمثال مقنع لطالب الدنيا والآخرة، فهل رأيت أحدًا طلب دنيا أو آخرة على وجه الطلب، فلم يدرك قصده أو بعضه، وقد سمعت عن معاوية حيث يقول: هموا بمعالي الأمور، فإني هممت بالخلافة، وما كنت أهلاً لها فبلغتها، وقد سمعت بقصة المأمون وأخيه الأمين، حيث استخلفه هارون الرشيد، ونفى المأمون إلى مدينة أصفهان، ومعه الحسن بن سهيل، وكان المأمون ذا فنون وعلوم وأدب، فقعد في مسجد الجامع، وقد فرش بالبلد إظهارًا للزهد، والناس يهرعون إليه ليعلمهم العلوم، وابن سهل يوماً إلى الطوائف، ويحرض الناس، ويقول لهم: هذا هو الخليفة حقًا؛ فيبايعونه، ويقول لهم ابن سهيل: هذا الذي سنته سنة الأولين الطاهرين، فلم يزل يستدرج الناس حتى حوى عسكره ثمانين ألفًا، وكان الأعاجم تسمع بطريقة أخيه الأمين الفاسد فتتفر وتطلب المأمون، حتى عقد الجيوش لطاهر بن الحسين، فدخل على الأمين فقتله، واستولى المأمون.

كذلك كان ابتداء محمد بن صباح الباطني تزهد حتى حصن الموت، وكان أهل الحصن يشتهون طلوعه الحصن، فلا يفعل، وجعل يؤلف التلامذة والأتباع، ويمهد لهم بأنواع الهذيان، يعلمهم به الجدل، يريهم أنه يريد هدايتهم على حسب ما تقبله عقولهم، فيبتدئ بأن يقول قائل: لا إله إلا الله لا يخلو أن يكون محققاً أو غير محقق، فإن كان محققاً؛ فاليهود والنصارى كذلك؛ وإن كان مبطلاً فما ثمرة التعلق بها، وهذا طريق إلى أصلهم الفاسد، فإنهم يثبتون للإمام مرتبة الألوهية، وعندهم اسم الله الأعظم، حقيقة للإمام دون غيره، ولا يُسأل الإمام عما يفعل، وهم يسألون، وليس هذا موضع ذكر مذهبهم الذي يكتمونونه، فلما تقرر عندهم الأصل جعل يقول لأتباعه: أما ترون الناس قد تركوا الشريعة خلف ظهورهم، ونبذوا أمر الله، ويفتح لهم في ذلك أبواباً حتى كثر أتباعه، فجعل يدرجهم بنشر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى صبا إليه خلق عظيم، ولم يزل كذلك حتى خرج صاحب القلعة يوماً إلى الصيد، والتلامذة أكثرهم أهل القلعة، ففتحوا القلعة، ودخلها، وقتل الملك في الصيد من كان معه من التلامذة، وكان ذلك أول ظهور مذهبهم، ثم أباح المحارم، ورفض الشريعة، لما وافقوه على أن له مرتبة التصرف، أخزاهم الله.

وكم مثل ذلك إن اعتبرته، حتى لقد بلغني: أن بعض المتصوفة، سُمع كثيراً على ألسنتهم من جد وجد، فقال: سأجرب نفسي في الجد بطلب الملك، وكان فيه آلة من علم وأدب، وكان بنفسه محلاً قابلاً للملك، فخدم في الفراشين، وفشت عنه السمعة الجميلة، فذكر بحسن السيرة، ومات مقدمه، فاستخلف مكانه، ثم تدرج إلى الديوان، حتى تصدر فيه، ففشى ذكره، وشاع شكره، واستحسن الملك والوزير سيرته، حتى مات الوزير، فجعل في مكانه، فأحسن سياسة الرعية، وتمكن من قلوبهم وقلب الملك، واستراح الملك واستراح الناس من أثقال كانت عليهم، فمات الملك وتزوج ابنته، ورُتب مكانه، وكما رأينا أنتزع الملك من أهله غير أهله، وتقدم متأخر، وتأخر متقدم، فإذا كان هذا أمراً تراه أمكن مع إرادة الدنيا! فكيف مع إرادة الآخرة إذا عمل لها عامل؟! والله سبحانه يقول: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا) [الشورى : ٢٠]، فكيف تقصر همك يا طالب الله، وأنت تراه وعد مريد



الآخرة ببلوغ أمله وزيادة، ووعد مريد الدنيا ببعضها، ثم ترى المصيب من طالب الدنيا كثيرًا، فكيف يكون حالك أنت؟ وإنما تطلب مولاك فتُحفظ من أسباب أمراض الهم.

واعلم أن من أعظمها، نظر أهل البدايات إلى أحوال أهل النهايات، ومطالبتهم أنفسهم بأحوالهم، فيصعب عليهم ويستبعدون ذلك، فتضعف همهم، كمن يريد التشبه بأحوال أهل الصفا من الأولياء، كالجنيد، والسري، ومعروف، فيعمل بعملهم مدة، ثم لا يجد من نفسه أوصافهم وأحوالهم، فيستولي عليه [الملال] والكسل؛ لاستبعاده الأمر، ونفور نفسه عن حمل ما كلفها من الجفا؛ بالمطالبة بأعمالهم وأحوالهم، فيغلب عليه الفتور واليأس والانبثات، «والمُنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»، ويقول: لو أردت لمثل أحوالهم لوفقت لمثل أعمالهم، فإن لم يتبين لك هذا، فانظر إلى من يترشح للملك مثلاً من أولاد الملوك، فيتخلق بأخلاق أبيه، ويجمع من الحواشي جمعه، وينفق إنفاقه، ويتهيا كهيئته في حال استواء ملكه اكتفاءً بعقله، فيضع الأمور في غير مواضعها، ويظن أنه في الحاصل، وهو في الفئت، فيذهب أمواله ضياعاً، وأوقاته إقطاعاً، وهو يظن أن كل عبد ومملوك، وخادم و غلام، وصاحب وجليس، له محب، وعليه مشفق، ومنه خائف، وأنه لا يخونه بقول ولا بفعل، ولا يذيع له سرًا، ولا يُضمر له غدرًا، فأتى عليه من مأمنه؛ فإنه وضع مرتبته في غير موضعها فظلمها، والظلم وضع الشيء في غير محله، وعاقبة الظلم خراب البيت، حتى لو كان الظلم في بيت في الجنة لخربه الله تعالى، قال الله تعالى: (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا) [النمل: ٥٢]، فما نال سوى التكبر على الإخوان، والتجبر في الأقران، والاحتجاب بالخصيان، وإنفاق الأموال، وكذلك من سمع بأحوال الأولياء، والزهاد من الملوك، وأهل الأتراف، فاستقبل حيز الشهوات رأسًا، ورفض الأسباب قبل استحكام نور الإيمان، سيما من يسمع بإبراهيم بن أدهم، وأمثاله من زهاد الملوك، فيترك ملكه طمعًا بمثل حاله، بغير مزعج إلهي، فإذا انقطعت ثارت عليه نيران الشهوات، وألم فراق المحبوبات، واستبعاد المطلوب عند افتقار نفسه للذات، ووقوعها في أنواع الإهانات، فتنتقع نفسه حسرات، وترجع إلى ما تركته رجوعًا على أقبح النيات، [وأخس]

الحالات، فإن أدركه لم ينوي بعدها مفارقتة أبدًا، وإن لم يدركه لم تصف سريرته إلا ما شاء الله، فبمثل هذه الأسباب مرضت الهمم، وانتزعت النعم، وقد قال عليه السلام: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه»، وقد كان الرسول ﷺ يقول لعائشة - رضي الله عنها -: «لولا حداثة عهد قومك بالكفر لرددت على قواعد إبراهيم»، ويقول: «إن عشت إلى عام قادم لأجلين اليهود من جزيرة العرب»، وأوصى بإجلائهم منها، وبإجازة الوفد بنحو من إجازته، وجعل التنزيل العزيز للمؤلفة قلوبهم نصيبًا مع الشرك، كل ذلك حثًا على الرفق.

وإن تأملت السيرة النبوية والكتاب العزيز بهذا المعنى؛ استشرفت على مكر لطيف عظيم، وتدبير بديع قديم، والله خير الماكرين ابتداءً للإسلام بـ (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) [الكافرون : ١]، إلى أوان الزحف، وضرب الرقاب، والمصابرة عند هبوب رياح السعادة، ثم صالح أن يرد عليهم من جاء منهم، ولا يردوا إليه من جاءهم منه وقتًا، (وَأِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا) [الأنفال : ٦١]، ثم على الجزية وقتًا، فلما استوى قدم السعادة جاء (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْخِنَ فِي الْأَرْضِ) [الأنفال : ٦٧]، ولا جرم لما أراد وضع الأشياء مواضعها، ولم يتجافى عن المحقرات، نظر معاوية في حفظ سياسته فتجافى، وعن زلات أتباعه، وأغضى عند هجومهم على شهواتهم، فالملك إليه، فقال ابن عباس: إن الله أقام الدنيا على ساقى حق وباطل، فأراد على إقامتها على ساق واحد فما تيسر له.

وقال أبو هريرة لعليّ - رضي الله عنهما - استخلف معاوية على الشام فإنه لا ينازعك إن فعلت، ثم أقرره يسيرًا أو اعزله فلا يمكنه منازعتك، فقال: لن يراني الله مستخلفًا معاوية على أحد المسلمين، فكان أبو هريرة يقول:

نصحت عليًا في ابن هند نصيحة	وفي الدهر لم يسمع لها قط ثانيًا
-----------------------------	---------------------------------

وعزل عمر خالدًا وأمر مكانه أبا عبيدة وقال: لم أعزله لنقص فيه، وعد فضائله على المنبر، ثم قال: إنما عزلته خشية أن تتازعه نفسه في الخلافة لشهامته، فشكره خالد وشكره المسلمون، فإذا كان أبو هريرة يأكل مع معاوية ويصلي مع عليّ، وكانت الدنيا قد أثرت بالصحابة الذين هم خير من خيار غيرهم، فكيف بحثالة الزمن؟.

ولما استخلف عمر بن عبد العزيز قال له ابنه عبد الملك - رضي الله عنهما - يا أبتاه قد أخرجت أمورًا كثيرة كنت أحسبك لو وُلّيت ساعة من نهار عجلتها، ولو فارت بي وبك القدور، فقال عمر عليه السلام: أي بني إنك لعلّى حسن قسم الله لك، ولكن فيك بعض رأى أهل الحداثة، والله لا أستطيع أن أخرج لهم شيئًا من الدين؛ وإلا ومعه طرف من الدنيا، أستلين به قلوبهم خوفًا من أن ينحرف علىّ منهم ما لا طاقة لي به، فهي سنة نبوية، وقف عليها عمر وقليل، ما ورث الأبناء مراتب الآباء، قال سبحانه: (لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) [البقرة : ١٢٤]، فإنه من وضع مرتبة في غير موضعها فقد ظلمها، والظلم وضع الشيء في غير موضعه، وعاقبة الظلم خراب البيت، حتى لو كان الظلم في بيت في الجنة لخربه الله، قال سبحانه: (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا) [النمل : ٥٢]، فأولاد الفقهاء يريدون التصدر بالتدريس والإفتاء، والتقدم على النظراء، من غير تحصيل وتبذل، ولا خدمة للعلماء، ويصعب عليهم الوضع من منازلهم عند أقرانهم، وأولاد الشيوخ يريدون التظاهر بأحوال آبائهم، وأولاد التجار يتشبهون بأبائهم في الإنفاق، مع ترك الاكتساب، فتسرع أموالهم إلى الذهاب، وأولاد الملوك يتشبهون بأبائهم بالاحتجاب، ومخالطة النسوان والخصيان، والتكبر على الإخوان، والجبر على الأقران، وكل من فعل ذلك ممن ذكرناه، فهو ظالم في طريقه إلى مقصده، فهم لا محالة يُعدمون العقول، ويُحرمون الوصول، لتضييع الأحوال في ارتكاب المشاق، ومعالجة السباق، في اكتساب الأموال والأحوال، ومبارزة الرجال الأبطال، مع ما تقتضيه الحداثة في السن، لحديث السن في السير إلى المقصد من المحبة بإفراط، والبغضة بإفراط.

والعزة التي بها تحصل تكذيب الصادق، وتصديق الكاذب، والرفع من مقداره، والوضع من مقدار غيره، والتكبر حيث ينبغي التواضع، والتواضع حيث ينبغي

التكبر، وتوهم أولاد الملوك، أن كل عبد ومملوك، وخادم و غلام، وجارية وصاحب، وجليس له محب، وعليه مشفق، ومنه خائف، ولنصيحته معتمد، وأنه لا يخونه بقول، ولا بفعل، ولا بعقد، ولا بجل، ولا يُذيع له سرًا، ولا يُضمر له غدًا، وتقريبهم البلهاء، حيث ينبغي تقريب الأذكياء، وبالعكس، والعزة بالسلامة، على ظن الاستقامة، فيؤتى عليه من مأمنه، فكذلك يغتر كل سالك إلى مقصده، بأمثال ذلك، فمن لم ينتفع بالإشارة، لم ينتفع بالقناطير المقنطرة.

وبالجملة فذو النهاية كذي أرض كريمة عَمَرَهَا وبزرها، فأدركتها السعادة بالإنبات، والسلامة من الآفات، حتى حصد الثمار وأحرزها، ولم يبق عليها إلا حفظها من العدو والانتفاع بها، وذو البداية إن لم يكن ممكن ابتداء حرث الأرض، فهو يرجو طيها، ليبذر فيها ما يسترزق الله فيه، مع أن له أعداء ينازعونه ويمنعونه، فهو بمنزلة من يطلب الأرض ليعمرها، ومن كان كذلك فرام الحصاد قبل الزراعة، أو قبل بلوغها، وقبل حصول الأرض، فهو الظالم لنفسه، قال ﷺ: «ولا تعطوا الحكمة غير أهلها فتظلموها»، فتأمل هذه الفصول، ففيها كفاية لمن هداه الله تعالى.

### فصل

وإذا فهمت هذه الفصول فارجو أن يستبين لك، أن أعلى مراتب الإنسانية خلافة الله ﷻ، وأعلى مراتب خلافة الله ﷻ الرسالة، وأعلى مراتب الرسالة مرتبة أولي العزم من الرسل، وهم الذين بُعثوا بالسيف، وأعلى مراتبهم أجمعها دعوة وهي الرسالة المحمدية، ثم بعد الخلافة عن الله، الخلافة عن الرسل - عليهم السلام - والخلافة عن الخلفاء لله، فخلفاء محمد - عليه الصلاة والسلام - بعد خلفاء الله أكمل الخلفاء؛ لأنهم خلفاء أكمل الرسل؛ إلا من جمع بين الخلافة عن الله والخلافة عن الرسول، كهارون ﷺ حين استخلفه موسى، فإن هارون له الخلافة عن الله دون واسطة، والخلافة عن موسى، فهو فيما هو مستخلف فيه خليفة الله من بطن، وخليفة موسى من ظهر، فمن كانت له مرتبة التحقق بالخلافة عن الله مطلقًا، وعن رسول الله ﷺ كعيسى إذا نزل في آخر الزمان، رجع بغيره من النبيين من هذا الوجه، ومن خلفاء

الله كالمهدي عليه السلام لجمعه الخلافة عن الله، وعن الرسول ﷺ ألا ترى أن الرسول ﷺ، أضاف خلافته إلى الله لا إلى نفسه، حيث قال : «إذا رأيت الرايات السود تقبل من أرض خراسان فأتوها ولو حبواً فإن فيها خليفة الله المهدي»، وأخبر أنه يملأ الأرض عدلاً وقسطاً، كما ملئت جوراً وظلماً، فأخبر عليه السلام بعموم حكمه.

وإذا فهمت ذلك، فاعلم أن أول مراتب الخلافة الإنسانية، وأخصها من حيث العموم خلافتك عن الله ورسوله على نفسك، وهذا ما يعبر عنه أصحابنا بملك النفس، ومن بعدها الخلافة على الأهل والولد، والمملوك والخدام والحيوان، ثم هي ترتقي حتى تصل إلى أعلى المراتب، ولا يكمل للخلافة على نفسه من لم تر به العناية الأزلية بنور العقل، الذي هو مناط التكليف، ولا يكمل للخلافة على غيره من لم يكمل للخلافة على نفسه، لما تنطوي عليه الخلافة من الأغراض النفسانية، التي بها تظهر الصفات الإنسانية، التي هي مظاهر الأسماء والصفات الإلهية، المشار إليها بالسعة، حيث وسعه سبحانه قلب عبده المؤمن ولا يكمل للخلافة على مجموع العالم؛ من لم يكمل للخلافة على آحاد العالم، فإن من وضع في [الطرف] فوق وسعه قسراً كسره، ومن حمل الدابة كرهاً فوق حملها قتلها، ولذلك لم يجمع الله الرسالة والملك إلا لداود وسليمان - عليهما السلام - لقربهما من الكمال المحمدي بالمناسبة الختمية، التي اقتضت التنصيب على خلافة داود، وتحجر الملك السليماني عن أحد بعده، واختصاصه بالرحمتين في قوله (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) [النمل : ٣٠]، وكانت الأمم الأول، يكون مع كل نبي ملك، فلما تمت الدورة في داود عليه السلام جمع الله له ولولديه الرسالة والملك؛ إذ فيها كان كمال الخلافة، فإنه لم تزل ترتقي بسطاً من آدم في ذريته، إلى عصر داود عليه السلام لأن آدم؛ وإن كان أول مظاهر الكمال الإنساني المعروف ذلك على السموات والأرض، فإنه لم يتمكن من ظهور كمال الخلافة الإنسانية في صورته الجزئية الإبداعية، لأسباب كثيرة منها:

قلة وجود المستخلف عليهم من نوعه، إذ لم يكن، ثم الإعداد يسير من ذريته، فلذلك لم تتضمن خلافته الظهور بمرتبة الرسالة، وكان نوح أول من تظاهر بمرتبة الرسالة، فكان حظ آدم عليه السلام العلم بالأسماء، وبعض العمل، وكانت العلوم والأعمال

مكنوزة فيه بالقوة، من حيث أنه مجموع الذرية، وفيما تناسل من ذريته إلى نوح عليه السلام فظهرت فيه بالفعل أول الظهور أيضاً، ثم لم تزل تتبسط وتظهر بحسب استعداد الخلفاء، والمستخلف عليهم في الأكملية، إذ الكمال لها كان في آدم، والأكملية في ذريته بحسب مراتبهم إلى داوود عليه السلام، واختلاف مراتبهم بحسب اختلاف مراتب الاعتدال في أمزجتهم، التي هي تعين مراتب أرواحهم، فإن تفاوت الأرواح الإنسانية بحسب تفاوت الأمزجة، وتفاوتها بتفاوت درجاتها في الاعتدال، فإن ظهور الوجود من الغيب إلى الشهادة، كان بتدريج وترتيب، حتى انتهى إلى آدم، فكان كماله، ثم صار الكمال الإنساني الذي هو الخلافة أيضاً؛ يبرز بتدريج بطريق الأكملية من الغيب إلى الشهادة، ومن القوة إلى الفعل، ومن البطون إلى الظهور، حتى تمت مرتبة الخلافة من حيث الأكملية في داوود عليه السلام، فتحقق بالخلافة علماً وعملاً وحالاً، فوق النص على خلافته بأوضح من النص على خلافة آدم، ويحله سبحانه في ذلك فإنه ذكر خلافة آدم بقوله سبحانه: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) [البقرة : ٣٠]، فما نص على اسمه ولا خاطبه بها خطاب المواجهة، مع أنه لا شك في خلافته، ولا نص على أمره بالحكم، كما فعل بداوود عليه السلام حيث قال: (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ... الآية) [ص : ٢٦]، ثم عظمه فخرج له عن خطاب المواجهة إلى خطاب المغايبة بقوله (إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) الآية، لنلا يقول: إنك إن ضللت، فصرح في خلافته، وعرض بخلافة آدم، وعرض في خطيئته، وصرح بخطيئة آدم حيث قال: (فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى) [طه : ١١٧]، وقال : (ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) « وتحقق آدم بالخلافة علماً وبعض العمل والحال ومع ذلك كان علم داوود أكمل والذي يدل ذلك أن المنصوص عليه من علم آدم هو علم الأسماء وإن فتنة آدم كانت من قبل الشيطان والتحذير الإلهي كان منه ثم مع ذلك أثر فيه قول إبليس (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا ان تكونا ملكين) الآية . فطمع في الخلود ورتبة الملائكة وغيره حلفه بعد التحذير منه وبعد أن سجدت له الملائكة أجمعون وبعد أن أدخل الجنة وقيل له (إننا لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وإنك لا تطمأ فيها ولا تضحى) وليس كذلك داوود، فإن فتنته كانت من قبل الهوى والهوى

له تأثير في العلم وإن كان راجحاً ومن له ذوق فيما ذكرناه يعلم أن أعظم شرائط التحقيق بمرتبة الخلافة وأولها العلم ولذلك لما أشرك الله - سبحانه - سليمان مع داوود وورثه إياه عبر بخلافة سليمان بن داوود بالملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده فقال في ذكر التشريك بينهما (ولقد آتينا داوود وسليمان علماً) الآية ففضلهما على العالمين، أصله العلم وقال سبحانه حاكياً عن سليمان (ياأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء) وقال سبحانه (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث نفشت فيه غنم القوم) الآية ، ثم قال: (وكلاً آتينا حكماً وعلماً).

ثم إن فتنة داوود كانت من كمال العلم، خلاف فتنة آدم فإنها بالعكس؛ ألا تراه غره وقاسمه وأوهمه وهو غير خارج عنه، وليس كذلك داوود، فإن داوود إنما أتى من قبل الهوى في العلم، فإنه لما تحقق بإحصاء التسعة والتسعين اسماً، ضرب له مثال ذلك بتزويج تسعة وتسعين زوجة، ثم طمع في تمتع المائة إذ من شأن الكمال من الرسل والأنبياء والأولياء أنهم لا يرون شيئاً متعذر الحصول عليهم بالنسبة إلى قبولهم على الإطلاق، إلا ما أخبرهم الحق سبحانه باستحالة حصوله بأخبار مخصوصة عندهم ليس من قبل الوسائط والمواد، فإذا أخبرهم سبحانه صدقوه وتابوا عن ذلك، ومن هذا الباب كان سؤال موسى الرؤيا على وجه مخصوص وسؤال عزير عن كيفية الإحياء على وجه مخصوص، فلما أخبر موسى بامتناع ذلك آمن وتاب.

وكذلك داوود لما أراد الله سبحانه إعلامه بأن التحقق بهذا الاسم ممتنع عليه من حيث أن الله لا يغفر أن يشرك به أقام فيه طلب المرأة المعروفة، وضرب له المثل المعروف فكان دخول الفتنة عليه من كمال العلم والتحقق به لكمال الخلافة وقصة آدم بعكس ذلك لأن داوود تحقق بالخلافة علماً وعملاً وحالاً، والدليل على رجحان علمه ما تسمع أنه كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وقول سيدنا محمد ﷺ في صومه أنه لا أفضل منه، وما جاء عنه في حديث أخذ الذرية أنا الله سبحانه خير آدم بين يديه وهما مقبوضتان، ثم قال: اختر أيهما شئت فقال: اخترت يمين ربي وكلنا يدي ربي يمين مباركة فبسطهما فإذا فيهما آدم وذريته فرأى أضوائهم أو من أضوائهم فقال: يا رب

من هذا؟ فقال: هذا ابنك داود ... الحديث . وقد جاء عن النبي ﷺ أن الصلاة نور، والصدقة ضياء، والوضوء على الوضوء نور على نور.

ولكمال علم سليمان اختار العلم لما خيره الله بين العلم، والملك، والمال، فاختار العلم، وفي الحديث «بين العلم والنبوة والمال وأعطاه الله العلم والملك والمال لذلك، ولكمال علمهما سخر الله لهما العالم السفلي والعلوي، وأنه لا يشك عاقل أن تسخير العالم السفلي من آثار تسخير العالم العلوي، وعالم أسباب التصريف، فأما السفلي فقد سخر حكمًا في الجن والإنس والطير والوحش وسائر الحيوان حتى سخرت لهما العناصر فسخر لداود الجبال والحديد، وسخر لسليمان الماء حتى غاص فيه الشياطين، وهذا يجمع تسخير الماء والنار، ولذلك نبه الحق سبحانه على عظمتها، فقال: (ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك) فأخبر أن عملهم دون الغوص لما فيه من جمع الضدين وسخر له الريح.

فافهم ما ذكرت لك تفهم أن داود ختم الخلافة الإنسانية الذاتية، فهو مظهر (بسم الله الرحمن الرحيم) من حيث الرحمة الذاتية، وسليمان شريكه في ذلك إذ هو جزء منه وولده، وزاد عليه بختمية الخلافة الإنسانية الصفاتية، فهو مظهر (بسم الله الرحمن الرحيم) من حيث الرحمة الصفاتية، التي هي أحكام الرحمة الذاتية، فلذلك انبسط ظهور الخلافة فيه ما لم ينبسط في أبيه، ولا في غيره انبساط الصفة على الموصوف، ولذلك كان له ألف امرأة ما بين مهريّة وسريّة، ولكمال خلافتها كانت فتنتهما من قبل النكاح، ولإبتداء خلافة آدم كانت فتنته من قبل المطعوم، ولما كان سليمان مشاركاً في الختمية الذاتية، ومتميزاً في الختمية الصفاتية، كان عطاؤه ممزوجاً، فمن حيث الصفة توقف على الدعاء، فقال: (رب هب لي ملكاً) الآية، لأن الصفة حكم على الموصوف، ومن حيث الذات ألهمه الحق الدعاء، وأخبره أنه لا حساب عليه، فقال: (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب)، ومن حيث هو تمام الخلافة الإنسانية وقع التحجير بإجابة دعوته، فعادت الأمور من بعده إلى البطون من الظهور، إذ ليس ثم إلا ظهوراً من البطون وبالعكس، فما نقص من الباطن أخذه الظاهر وبالعكس، فهذا معنى تعلق الملك السليمان في خاتمة، أي: في ختميته.



فإن فهمت ذلك، فهمت أن الملك السليمانى هو كمال الظهور بالخلافة الإلهية، ولهذا قال: (وَهَبْ لِي مُلْكًا) [ص : ٣٥]، ففكر وخصص، وأنه قد شورك في كل جزء من أجزاء ملكه، فيفهم أن الملك المخصوص به هو الظهور به جملة واحدة، ومعنى الخاتم كونه الحد والنهاية، فلا ينبغي لأحد من بعده الظهور بمثل ما ظهر به، ألا ترى رسول الله ﷺ مكنه الله سبحانه من العفريت قهراً، حين جاءه بالليل ليفتك به، فهم بأخذه وربطه بسارية المسجد حتى يصبغ، فتلعب به الصبيان في المدينة قال ﷺ: «فأمكنني الله منه»، ثم أخبر أنه لما هم بأخذه وربطه، ذكره الله دعوة سليمان، فتأدب معها ﷺ لعلمه بموقعها، بعد أن أمكنه الله منه.

فقد استبان لك أن الملك السليمانى هو الظهور بالكمال الإنسانى، الذي أول مظاهره آدم، وهو مشرقه، ومستواه سليمان عليه السلام، فلذلك قال في كتابه: (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) [النمل : ٣٠]، يشير إلى كمال خلافته، وتحققه بالظهور بالرحمتين، رحمة الامتنان، ورحمة الوجوب، فرحمة الوجوب: هي المشار إليها باسمه الرحيم؛ لأنه سبحانه أوجب على نفسه الرحمة، ورحمة الامتنان: هي المشار إليها باسمه الرحمن، ورحمة الوجوب داخله فيها دخول تضمن، فإن الإيجاب من الامتنان، فالرحيم داخل في الرحمن دخول تضمن، فهو ﷺ يقول: (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ) أي: وإن سليمان (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ظاهر، فكأن قوله: (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ) بمنزلة قوله: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، ثم فسر به (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، لتعرف مرتبة علمه بعلم المكتوب إليه، وفهمه ﷺ على نحو قوله سبحانه: (الْقَارِعَةُ \* الْقَارِعَةُ \* مَا الْقَارِعَةُ \* وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ) [القارعة : ١، ٢، ٣]، وأشبه ذلك، ولذلك عظمته بلقيس - رضي الله عنها - حيث وفقها الله فقالت في كتابه: (إِنِّي أُلْقِي الْكِتَابَ كَرِيمًا) [النمل : ٢٩]، ثم امتحنت صدق دعواه بالهدية لتتظر ما يرجع المرسلون، فردّها لعلمه أنه له وإليه ترجع، وإن لم تأت في هذا العالم، بل لعلمه أنه لا بد لها منه، فجاءته مسلمة ومسلمة له، وهذا فقه عظيم [يعرفه] من له هذا الذوق، وقد قدح قوم في ذلك، وزعموا أنه قدم اسمه على اسم الله، وحاشاه من ذلك الذي توهموه، وقد تعجرف خلق كثير بتمويهات وأكاذيب، على ألسنة العباد، أنهم وعظوا

بها سليمان ووبخوه، ورووا في ذلك أحاديث موضوعة عن النبي ﷺ ليستميلوا بها قلوب الضعفاء، ويأكلوا بها من أموالهم، وحاشا لعلم رسول الله ﷺ، وحاشا لسليمان عليه السلام، فالعياذ بالله من نقص رُتب رسل الله.

### فصل

فإذا فهمت هذه الفصول المقدمة لك على ترتيبها، فهمت أن معنى الإنسانية هي الخلافة عن الله، وأن الخلافة عن الله مرتبة تشمل: الولاية، والنبوة، والرسالة، والإمامة، والأمر، والملك، فالكمال الإنساني بالقوة منذ آدم إلى آخر مولود، فقد جمع الله لأدم من مراتب الخلافة والولاية والنبوة، فهو مشرقهما، وجمع لنوح الولاية والنبوة، والرسالة، فخلافته أكمل، وجمع لإبراهيم الولاية والنبوة، والرسالة، وابتداء الإمامة، فخلافته أكمل، وجمع لموسى الولاية والنبوة، والرسالة والإمامة، وابتداء الأمر فخلافته أكمل، وجمع لداود الولاية والنبوة، والرسالة والإمامة، والأمر وكمال الخلافة فخلافته أكمل، وجمع لسليمان الولاية والنبوة، والرسالة والإمامة، وكمال الخلافة، وتمازج الملك، فخلافته أكمل، ولذلك عم التسخير له، وتصرف بالأمر الذي هو القول مكان تصرف غيره بالهمة، قال سبحانه: (تَجْرِي بِأَمْرِهِ) [ص: ٣٦]، وجمع لعيسى الولاية والنبوة، والرسالة والإمامة، والأمر والملك، وتمازج الرسالة، فخلافته أكمل، وتصرفه أتم، لمن عَقَلَ عن الله، وبه تمت دورة العبودية في الخلافة، ولتمامها به قال سبحانه: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ..الآية) [آل عمران: ٥٩]، فماتلتهما من حيث الختمية؛ لأن آدم ختم المظاهر الإنسانية في العالم، وعيسى ختم مظاهر الرسالة في آدم عليه السلام، فتصرفه أتم، وعلمه أكمل، ألا تراه يُحيي الموتى، ويُبرئ الأكمه والأبرص، ويخلق من الطين كهيئة الطير، بيد أنه لا يتم له التظاهر بمجموع الملك، بل تملك لاختتامه بسليمان عليه السلام وتمازج ظهوره، فلم يبق إلا رجوعه من الظهور إلى البطون.

ولما تمت دورة العبودية في الخلافة بعيسى، جاء الله بدورة السيادة في الخلافة لسيدنا محمد ﷺ فكان قطب الدائرة، ومفتاح باب الآخرة، جامعاً للولاية، والنبوة،

والرسالة، والإمامة، والأمر، والملك، فهو ختم الختم، ومحل الإفشاء والكتم، فكمال من قبله كمال عن نقص، وكمال محمد كمال عن كمال، جمع اليمين والشمال، وتحقق بالإدبار والإقبال، بلا إدبار ولا إقبال، فأوتي جوامع الكلم، وانقطعت به نبوة التشريع ورسالته، ولم يبق إلا اختتام الولاية بخليفة الله، وخليفة خلفاء رسول الله ﷺ محله من الولاية محل محمد من الرسالة، فكان ولياً وأدم بين الماء والطين، وغيره ما كان ولياً إلا بعد تحصيل شرائط الولاية، كما كان محمد ﷺ نبياً وأدم بن الماء والطين، وغيره ما كان نبياً إلا بعد تحصيل شرائط النبوة، وجميع الولايات مدرجة في ولايته، كما أن جميع الرسالات والنبوات، مدرجة في نبوة محمد ورسالته ﷺ، والكلام في مرتبته تكلُّ الأفهام عنه، فلنكتفي بهذا القدر.

### فصل

وإذا فهمت ما تقدم ذكره، فهمت أن الملك والرسالة توأمان لا قيام للعالم إلا بهما، لأنك قد فهمت أن هذا النوع الشريف مجموع العالم، وثمره الوجود، وأنه المقصود من إيجاده، وأنه لأجله أوجد العالم، وأنه المقصود للبقاء، والاستئناء إلى الأجل المسمى، وأنه مجموع العالم، وأنه بصلاحه صلاح العالم، وبفساده فساد، وإنما يتم بقاؤه، واستمداده، واستئماؤه، وصلاح عبادته بالرسالة والملك، فإن بالرسالة تحصل المعرفة الأولى: التي هي الإيمان بالغيب والعبادة، وبالعبادة تحصل المعرفة الثانية: التي هي المشاهدة والرؤية، التي فيها مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، المشار إليها بقوله سبحانه وتعالى: «كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به»، وبالملك يحصل التزام العدل.

وبيان ذلك أن الإنسان مفارق لسائر الحيوان، بأنه لا يحسن معيشته لو انفرد فيها، وضرورات حاجته إلا بمقارضة أو معاوضة من آخر من جنسه، يكون كل واحد منهما مكتفياً بالآخر، ونظيره كزراع ونساج، وخياط وجزار، ودباغ وطباخ، وحداد وبخار، إلى غير ذلك، ومن ثم اضطروا إلى عقد المدن والجماعات، بالعدل والسياسة، ومن لم يكن كذلك عدم كمالات المدينين، على أنه لا بد من تشبهه بهم، فهم لهذا

اضطروا إلى الشركة [والمعاوضة] ، واففقوا إلى سنة وعدل، إذ لو ترك الناس وآرائهم؛ لرأى كل واحد ما عليه ظلمًا، وما يطلبه حقًا، لغلبة الأهوية، وميل الطباع بالنفوس، ويحصل بذلك التنافر والتباغض، فهم في غاية الافتقار إلى بيان معدل يسكن به الهيجان، وتنحسم به الأطماع، وينقطع به البغي، وتنحسم به مواد الشر، رهبة ورغبة، كما قال ﷺ: «إن الله يزرع بالسلطان ما لم يزرع بالقرآن»، ليقبلوا على ما هم عليه، وعلى ما أريد منهم، ويحصل التآلف والتحابب، وينقطع التدابر والتقاطع، وتنعم الأرض، فيبقى هذا النوع إلى الأمد المقدر، ولا يتيسر ذلك؛ إلا بأن يكون لذلك اللسان، أي: الناموس المعدل نوع اختصاص من القهر، ليس لغيره مثله من جنسه يمتاز به، ليمتثل أمره، ويسمع قوله، قال سبحانه وتعالى: (وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخِيًّا) [الزخرف : ٣٢]، فالتسخير ضربان: تسخير رهبة وقهر، والاختيار فيه إلى القاهر كتسخير الإنسان لذي السطوة من الإنسان، وك تسخير جوامع الحيوان، ومذلاته للإنسان، وتسخير بالرغبة والمرتبة، كتسخير السلطان للرعية في القيام بأمرهم، والذب عنهم في حفظ أنفسهم وأموالهم، رغبة في التصدي، فهو تسخير المرتبة، فما تسخر مثل المثل أبدًا، من حيث هو مثله، وإنما تسخر له من حيث الدرجة التي امتاز بها عنه، وارتفع عليه فلا يتسخر إنسان لإنسان، برهبة أو رغبة من حيث هو إنسان، بل من حيث هو حيوان، وإذا وُجد هذا على هذه الصفة؛ فالحاجة باقية إلى من يدعوهم إلى معبودهم، ويعرفهم الأولى بهم، والمقصود من وجودهم، ويزكيهم كما قال سبحانه وتعالى: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ) [البقرة : ٢١٣]، وهذا أيضًا يحتاج إلى ما يمتاز به عنهم، مما يستدل به على أنه جاء من واجب الوجود، ولا يشاركه غيره في وقته بمثل ما يجيء به، من حال وعلم وصفة ومعجزة، ولا بد أن يكون ذلك إنسانًا يخاطبهم، ويلزمهم السنة والعدل، ويعرفهم صانعهم، كما قال سبحانه: (قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا) [الإسراء : ٩٥]، وقال سبحانه وتعالى: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ...الآية) [التوبة : ١٢٨]، وقال تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ) [الجمعة : ٢]، فقد تبين لك أن العالم لا

يقوم إلا بالرسالة والملك، وأنهما توأمان، وأن الوجود بأسره في أشد الحاجة إليهما، وأنهما معظم نفعه، فاستبان لك شرفهما، قال ﷺ: «الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله»، فهما معظم الخلافة، إذ بهما معظم الظهور بمعظم الأسماء الإلهية على ما يسلف، وعلى ما سنبينه إن شاء الله تعالى، وهما معظم الكمال الإنساني، وبهما حصول معظم الكمال أيضاً، فلا جرم أن نبوة التشريع ورسالته قد انسدت بابهما، بسيدنا محمد ﷺ لأنه لبنة التمام، فلم يبق إلا الوراثة منهما، أعني: خلافتهما.

وأما الملك فلا ينقطع لانقطاع الرسالة، فإنه لقب من ألقاب الخلافة له مقام النيابة، لنبوة التشريع وهي التي انقطعت، وأما غير نبوة التشريع فلم تنقطع لأن عيسى عليه السلام والياس والخضر موجودون، إن تشككت فنيابة النبوة تكون بالجمع بين الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى على مرسوم الرسل، وحفظ حدود الله وشرائعه، وإقامة سياسة الرسل، ونواميسها المضروبة بين الأمم في الأمم، فهي مرتبة الخلافة للرسل، وبهذا سُمي الخليفة أمير المؤمنين، إما بتسكين الهياج، وإما بحسم مادة الاختلاف، إذ العالم كالجسد الواحد الجزئي، الذي تسري فيه أخلاطه، فإذا طغى بعضها على بعض، بأن تهيج عليه الصفراء، والبلغم أو السوداء، مثلاً أو يزيد فيه الدم، أو نحو ذلك، احتاج إلى التسكين بالفصد أو الحجامة، أو القىء والاستفراغ، أو بنوع من أنواع الأدوية، التي آخرها الكي، حتى يرجع إلى الاعتدال.

فللنبوة مرتبة الخلافة عن الله تعالى كما سبق، والملك والقضاء والسلطنة لها مرتبة التنفيذ لحكم النبوات بالقهر، فالملك حجاب الرسول إذا كان ظاهراً، وخليفته ووراثه، ونائبه، إذا كان باطناً، فإننا قد بينا أن الأمانة التي حملها الإنسان نفسه، وأنها مدسوسة مقبوضة في هذه الطبائع المختلفة، الكثيفة الظلمانية، وأنه مأمور بردها إلى أهلها، الذي اشتراها منه، بأن لها الجنة، وأداؤها تركيتها هو الوفاء بالعهد.

والوفاء بالعهد: هو أن يكون سعيه في كل شيء لله لا لها، سواء كان من محابها أو من مكارهها، على ما يذكر في موضعه إن شاء الله، فإن فعل ذلك فقد زكاها، وإن لم يفعل فقد دساها، قال سبحانه وتعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا \* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[الشمس : ٩، ١٠]، وإنما قلنا: إنها هي الأمانة؛ لأنها مرآة أسماء الله ﷻ كما أشار إليه بقوله: «**ووسعني قلب عبدي المؤمن**»، فهي موضع نظره الذي لأجله وجد الوجود، وهي لا تزال أمانة بالسوء، ما دامت على دسها، حتى ترحم، فإذا رحمت صارت لوامة، تلوم نفسها على أفعالها، حتى يرضى عنها مشترطاً، فيرضيها فتطمئن إليه، وما كلف الله سبحانه من لم يتخلص من نفسه غير نفسه، حتى يتخلص منها، والخلاص من سد أبواب الهوى مطلقاً، ووقوفها على مولاها، وذلك يتيسر جملة واحدة إلا لمن شاء الله تعالى، فلذلك كان الرسل تبدأ بتدريج الدعوة إلى الله تعالى أولاً فأول، فيعلم الناس أن لهم صانعاً واحداً قاهر قادراً، عالماً بالسر والعلانية، له الأمر إذ له الخلق، وحقه أن يطاع، وأنه قد أعد للمطيع معاداً مسعداً، وللعاصي معاداً مشقياً، ليعمل الناس بحسب ذلك، ويتلقوا منهم أقوالهم بالقبول والسمع والطاعة، ثم يصنعوا بينهم بأمر الله سبحانه وتعالى شريعة لا يتعدها كل واحد منهم، تدوم بها سياسة أمرهم، وتواصلهم لهم وتحاببهم، وينقطع بها تنافرهم وتجانبهم، من أحكام البيوع والنكاح، والحدود والتعزيرات، ليتقروا بذلك إلى الآخرة، وتقع أعمالهم على الوجه المطلوب، ويبقى مع ذلك ذكرهم للعباد والصانع والرسول، فلا يستمر النسيان على أذهانهم بعد انقراض الرسل، ويخرجون على المراد بهم؛ ألا تراه سبحانه يقول: **(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)** [البقرة : ١٧٩]، ثم يفرض عليهم بأمر الله سبحانه فرائض، ويندبهم إلى مندوبات من أفعال وأقوال، في مُدد متقاربة، وأوقات معينة، يجب تكرار بعضها، ويندب تكرار بعض، ويذكرهم الله سبحانه ورسوله، ومعاده من ألفاظ تقال، ونيات تتخيل، وأعمال تفعل.

وتلك الأعمال إما حركات وإما قطع حركات، كالصوم والصلاة، فإن الفاعل بالفعل لا بد أن يذكر من لأجله فعل، ويذكر الواسطة والمعاد، وكذلك بالامتناع، والصوم يحرك من الطبيعة تحريكاً شديداً، ينبه صاحبه على عظمة ما هو فيه، فيكون العبد مستجيباً لمجموعه، منصرفاً إلى الله بكلية، وقد نبه الرسول ﷺ على ذلك بقوله: «**إنما شعرت المشاعر وجعلت المناسك لإقامة ذكر الله تعالى**»، ألا تراه عليه الصلاة والسلام عيّن مواضع مقصودة، جعل التوجه إليها توجّهاً إلى الله تعالى، وجعل التوبة

إلى الله أتم قربة من غيرها، وعين فيها أفعالاً وأقوالاً، كالحج والجهاد ونحو ذلك مما يجمع مصالح دنيوية وأخروية، وجعل ذكر الرسول ﷺ تالياً لذكر المرسل، وعين أن أشرف هذه الأعمال ما كان العبد فيه مقبلاً على الله سبحانه، مناجياً له كالصلاة، وعين فيها آداباً كما جرت به العادة من الاستعداد لمقابلة الملوك، وزيادة لتمييزه عنهم سبحانه وتعالى من الطهارة والتنظيف والتطيب، والخشوع والذلة والافتقار، وغض البصر وقبض الأطراف، وترك الالتفات والاضطراب، تعظيماً وهيبة، وسن لهم آداباً ورسومًا محمودة، وسامح بها العامة أولاً برسوخ ذكر الله في نفوسهم، وذكر ثوابه وعقابه، وذكر رسوله المترجم عنه بذلك، ليدوموا على سنته، ويخف عنهم ثقل التقيد بقيوده، ويسلموا من عقوبات المظالم والمآثم، وما ينافي حصول ما وعد به من لذات المعاد، وما بين ذلك من نزاهة أنفسهم عن الخبائث المستقرة، من ظلمات الطبائع والأخلاق المهلكة، وتبعيدها عن الهيئات البدنية، فتوافقهم على الاستعداد، وتسلم من فتنة الجسد المضاء بشهواته مصالح المعاد، ومن الارتياض بطريق الكسل عن الطاعات، والنشاط في اكتساب اللذات البهيمية، ويأخذ بالارتياض بتكرار ذكر الله سبحانه وتعالى وعبادته بجميعها، فيتجلى لها سبحانه وتعالى كما وعدّها، ويربها عالم السعادة من الملائكة، والأرواح الشريفة والجنات العالية، فيتولد من ذلك الالتفات إلى جنابه سبحانه وتعالى، والإعراض عما سواه، فيحصلون على محبته، ويحصلون من محبته على معرفته، كما قال سبحانه وتعالى: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به... الحديث»، فلا شك أنه لو فعل هذه الفعال، والتزم هذه السنن، من لم يكن معتقداً لها، لم يعدم حظاً، فكيف بمن يعتقدّها من عند الله، ويفعلها قربة إلى الله، فيكفيك ما سلف من ذكر أمية بن أبي الصلت.

### فصل

فقد استبان ذلك أن الخلفاء والأمراء والملوك حفظة للحدود ومنفذون للأوامر إذ لا يكمن للجانبين أعني الرسالة والملك أو الخلافة عن الله والملك إلا الأقلون عدداً الأعظمون عند الله قدرًا فلذلك كان في الأمم الأول يكون مع كل نبي ورسول - صلى الله عليهم وسلم - ملك يلزم امته طاعته وما اجتمعت النبوة والرسالة والملك إلا لأولى

العزم من الرسل وما انبسط ذلك تمامًا إلا في داوود وسليمان – عليهما السلام – إذ هما وعيسى – عليه السلام في ختميتهم ظهر بطن ختمية محمد – صلى الله عليه وسلم – فلذلك عم ملكهما في الظاهر وانبسط على الطير والوحش والجبال والماء والنار والناس والرياح لأن داوود كما ذكرنا مظهر اسم الله الرحمن من حيث الذات وسليمان – شاركه وختمه ومظهر اسمه الرحمن من حيث الصفات وعيسى – عليه السلام – ختم مظاهر اسم الله من حيث الصفات وأول مظهر اسم الله الذي هو الله من حيث الذات فهو الفجر الأول المبشر بمحمد – صلى الله عليه وسلم – ومحمد – صلى الله عليه وسلم – مظهر اسم الله الذي هو الله ذاتًا وصفاتًا فهو الرحمة للعالمين ذاتًا وصفاتًا وتمتم ملكه موقوف على ظهور المهدي وبظهوره يعم الندى ويفتح فم الإحاطة ويسمع الرجل من شراك نعله وعذبة سوته ويخبره فخذ به عمل أهل بيته من بعده وتدعوهم الأحجار والأشجار لليهود يفعلون بالقول ما يفعله غيرهم بالفعل فيفتحون القسطنطينية بالتسبيح والتقديس وغنما امتنع اجتماع الملك والرسالة عن الأكثرين لأنه لا يقوى على الجمع بين الظاهر والباطن إلا المخصصون بذلك لن كل واحد منهما حجاب عن الآخر فمن اشتغل بأحدهما ضعف عن الآخر فاستدعى ذلك اختلاف وف اختلال الجميع فإن الأمر دور بينهما كما هو الأمر دور بين الروح والجسد وعلى لك نبه صلى الله عليه وسلم بقوله « كما تكونوا يولى عليكم » ولما كان علماء هذه الأمة كأنبياء بنى إسرائيل وكانت هذه النبوة جامعة للنبوات وكان العلماء ورثة الأنبياء وكان الخليفة من جمع بين الوجهين بعد الرسل كما قلنا لزم من تحقيق الإرث قتل الثلاثة الخلفاء – رضى الله عنهم – من قوله سبحانه وتعالى « ويقتلون النبيين بغير حق » فإن الوارث يصيب من النعمة والنقمة بقدر إرثه وكانت الخلافة مدة قوتهم بآثاره عليه الصلاة والسلام على الجانبين ثم استحالت ملكًا كما قال – صلى الله عليه وسلم – « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تصير ملكًا » فإنه لما ضعف الخليفة الحق الذي هو القطب القائم بوراثه النبوة عن الظهور بها احتجب بالملك الذي هو الخليفة ظاهرًا وأطلق عليه اسمه لبقاء صلاح العالم به والخليفة الذي هو القطب ناظر إليه وقائم به وممد له بحسب قبوله واستعداده كما ترى الماء ينزل من السماء واحدًا فتختلف



الثمرات التي تخرج به بحسب القوابل وإنما ذلك لعدم الأعوان فإنه إذا هلك الأصل هلك الفرع والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» فمواد الإسلام تسرى من قلب الخليفة الذي هو القطب في العالم والفرع إذا هلك جبره الأصل ألا ترى الرسول - صلى الله عليه وسلم - لما كان خاتمًا للنبوات والرسالات كان ابتداء نبوته بـ « قل يا أيها الكافرون » و « ليس عليك هداهم » و « إن عليك إلا البلاغ » وكان يعرض نفسه على أحياء العرب في كل موسم ويقول « من ينصرني حتى أبلغ رسالات ربي » ودعا الله تعالى يعز الإسلام بأحد العمرين بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام وكان يحرس بالسيف وخنقوه وبصقوا في وجهه وطرحوا سلى الناقة على رقابته وشجوه وأدموا وجهه وكسروا رباعيته وأخرجوه من مكة وكان يفرق أصحابه إلى البلدان وكان يضربون الطبل تحت الكساء للإجتماع للصلاة وهرب إلى الغار فلما كثر أتباعه شق القمر ونزلت آية العصمة ثم لما هبت رياح السعادة أمروا بقتال المشركين كافة ونبذ العهد وانسحب ذلك على الأولاد والمهج والحريم والأموال كذلك الخلافة من بعده تقوم بالاجتماع وتضعف بالفرقة فإن الخليفة وإن كان كاملاً إذا لم يجد أعواناً ضعف كما أن الروح وإن كان كاملاً للقيام بمصالح البدن إذا تلجت أعضاء جسده فلم تواته فلا سبيل له إلى الوصول إلى مصالحه فكذلك كان النبي - صلى الله عليه وسلم - في أول الإسلام لأنه معهم كالجسد الواحد فلذلك أخبر أن إخوانهم في الفترات للواحد منهم أجر خمسين من أصحابه حتى قيل له : بل منهم قال : بل منكم ثلاث مرات ثم قال لأنكم تجدون على الخير أعواناً ولا يجدون » فالخليفة بمنزلة القلب إذا فسد فسد سائر الجسد كما قال - صلى الله عليه وسلم : « في جسد ابن آدم مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد وإذا فسدت فسد سائر الجسد ألا وهي القلب » ونبه على أن الأمر دور بين الروح والجسد وقال : « من أصلح ظاهره تولى الله إصلاح باطنه » وكم نبهت الشرائع على الاجتماع قال سبحانه وتعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » وقال « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » وقال « والله مع الصابرين » وعلى هذا جاءت آيات المصابرة حتى كان الواحد في أول الإسلام يصابر عشرة ثم نسخ باثنين لما كثروا واتسعت المعرفة وفي الأحاديث من

ذلك كثير كقوله « يد الله مع الجماعة » وقوله « غن الأمة لا تجتمع على الخطأ » كل ذلك تنبيه على أن الأمر دور بين الرعية والخليفة أو الملك كما هو الأمر دور بين الروح والجسد قال عليه الصلاة والسلام : « السلطان ظل الله فبالأرض » فالظل لا محالة تابع لمن هو في ظله والله سبحانه وتعالى مع خلقه بحسب أحوالهم وأعمالهم كما نبه عليه الرسول بما حكاه عنه في قوله – تعالى – « يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أردها عليكم فمن يوجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » وفي التنزيل « سنجزئهم وصفهم » و « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » وفي الأحاديث الصحيحة « إذا أبغض الناس فقرائهم وأظهروا عمارة الدنيا وتكالبوا » وتكالبوا « على جمع الدراهم وماهم الله بأربع خصال بالقحط من الزمان والجور من السلطان والخيانة من ولادة الأحكام والشوكة من الأعداء وفيه « إن استقامت أمتي فلها يوم وإن لم تستقم فلها نصف يوم » كل ذلك دال على أن افتراق الأمة عن الانقياد للخليفة والسلطان كافتراق الأعضاء عن طاعة القلب وإن جور السلطان كفساد القلب وكلا الوجهين ضار بالجميع ألا ترى لما اختلفت الأمة على عثمان – رضى الله عنه – آل الأمر إلى ما آل إليه وأصل ذلك أن الرسول قد بلغ واكمل الله لنا به الدين وعرفنا الحق ولحق بربه سبحانه فالإبلاغ عن الله إلينا عليه والعمل بالأمر علينا لأن الدعوة ليست موقوفة على اختيارنا بل هي بحسب إرادة الحق وأما العمل فهو إلينا أن قمنا به فلنا وإن لم نقم به فعلينا فلذلك جعل الاستخلاف هو الاقتداء والتأسي وقد نبهنا الرسول – صلى الله عليه وسلم – على ذلك بقوله « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » فأخبرنا أن الاقتداء إلينا وأنا إذا اجتمعنا على أيهم كفانا واهتدينا إذ نكون على قبلة واحدة معتصمين بحبل الله غير متفرقين فتعنيه أنفاسنا وتعود عليه بركات أعمالنا فلذلك لم يستخلف الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأبقى الأمر شورى وأخبرنا أن لا نجتمع على الخطأ إذ لا تخلو الأرض من قائم لله بحجته وذلك القائم لا يكون من غيرنا أعني المحمديين ونبهنا أيضاً على أن ذلك إلينا بقوله « إن تستخلفوا أبا بكر تجدوه قوياً فأمر الله في بدنه ضعف وإن تستخلفوا عمر تجدوه قوياً في أمر الله قوياً في بدنه وإن تستخلفوا علياً تجدوه هادياً مهدياً يحملكم على الحجة الواضحة ولن تقفلوا » فنبه على

أن الاستخلاف إلينا وعلى أن الاجتماع على غير ممكن ولما كان الأمر دورًا بين الخليفة والرعية كما هو بين الروح والجسد توقفت الأمة في أول الأمر واختلفت قبل الاجتماع على أبي بكر بيسير حتى قالت الأنصار منا أمير ومنكم أمير فظهر من تأثير أنفاسها عند الافتراق أمر الردة بعد الاجتماع فجبره الله ببركة الاجتماع على أبي بكر مع توقف الصحابة - رضى الله عنهم - عن موافقته على قتالهم فحمانا الله - عز وجل - من سوء الردة وسلمت الأمة من قبل أبي بكر ببركة الاجتماع عليه ثم أدلى بها إلى عمر - رضى الله عنه - فكانت خلافة عمر اجتماعًا من إجماع فحفظ بنفسه عن الحديث فالأمة وتلكأت من شدته نفوس فنبتت فيها أشجار الانتقاد سرًا وسقتها مجارى مياه التوقف والاختلاف . قبل بيعة الصديق فقتل عمر من قبل الأمة عقوبة لها لفعلها إذ التوقف التلكؤ فعلها فلا يعود إلا عليها ودرج محفوظًا فاستقوت عروق الشجرة وتغازرت مياه الأنفاس المختلفة أيام الشورى حتى استخلف عثمان إجماعًا من إجماع إذ هو نتيجة إجماع فحفظ أيضًا من الحدث في الأمة ثم تفرعت أغصان الشجرة في مدته وتغازرت أنهار افتراق الهمم حتى قتل صبرًا من قبل الأمة ثم اختلفت على عليّ فكان محفوظًا من الحدث فيها لأنه بنص خلافته وإجماع إذ قد شهد له الرسول بالصلاحية لها وعينه عمر في الشورى ومن صلح للأولى فهو بالثانية أولى ولا سبيل للاجتماع عليه لتوقفه في أول أيام بيعة أبي بكر ولما قد نبه عليه الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن الأمة لا تجتمع عليه فقويت الفتنة بالاختلاف عليه مع تكرار الشهادة بكماله لها وتحققه بها « أنت منى بمنزلة هارون من موسى » « من كنت مولاه فعلى مولاه » فأخبرنا بهذين الحديثين أن الأمة لا تجتمع عليه أيضًا بقوله « ولن تفعلوا » وإفهامًا بتشبيهه بهارون فقد اختلف قوم موسى عليه بغيبته فلا جرم مرقت المارقة وخرج الخوارج وبقي من بقي فلم يزل يداوى الجرح بالكي بإعواز الدواء ولم يجتمع عليه مبايعوه في جميع رأييه إجماع أصحاب معاوية على رأييه فقتل أيضًا من قبل الأمة عقوبة لها فعظمت الفتنة وقويت المحنة فسكنها الحسن - رضى الله عنه - بتسليمها لمعاوية - رضى الله عنهما - فكان أول ملوك المحدثين رحمة الله عليهم فسكن الأمة مدته وفي القلوب وفي النفوس ما فيها وبرزت ثمار الاختلاف فقوى

العقاب واشتد العذاب واستولى على الأمة من سلك بها غير مسلّهم وأخذ منها بثأر مخالفتهم وابتليت الأمة بقتل أئمتها وأولاد نبيها وعلماؤها وصلحائها ولقيت من السطوة والقهر والذلة ما لقيت حتى تُسب أئمتها على المنابر بين أظهرها ولا تنتقم لله وكفر بعضها بعضاً فبطن المعروف وظهر المنكر وصار المعروف منكراً والمنكر معروفاً حتى استولى الكفر على الإسلام وقتل أئمتنا ورجالنا واستبى أولادنا وحريمنا وأمّوالنا فيا لله يا للمسلمين ألا حمية تحمل على ملازمة باب الله ألا استعانة بأولياء الله ألا اعتراف ألا إقرار ألا إنابة ألا استغفار ألا أنفة عن هذه المذلة والصغار ألا إلتجاء إلى العزيز الغفار فيا منظور الناظر ويا من بظهوره بطش الملك القادر ويا ولي الله ويا خليفة الملك القاهر أما انسلخت من الأصلاب والأرحام أما أمرت بتديل هذه الأحكام السموات والأرض ومن فيهن بانتظارك والوجود متشوف إلى إسفارك اللهم إنا نؤمن بولايته وخلافته وإمامته وهدايته ولا نلحد فيه إلحاد الغافلين ولا ننكره انكار العالين وننتظره مدة حياتنا إيماناً بك وتصديقاً لرسولك فلا تحرمنا إن لم تقسم لنا رؤيته أجر أتباعه واكتبنا في عدد أنصاره وأشياعه آية فلا جرم لما كان الأمر كذلك أجمع السلف على على أن لا ينازع الأمر أهله ولا يخرج على إمام ما بقيت الشريعة المطهرة واعتبروا الشوكة عند عدم الخلافة فاعتبروها في أحكام أهل البغي نظراً إلى الارتباط بين السلطنة والعالم وعلماً بأن السلطان بديل الخليفة الذي هو بديل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي خليفة الله وأن حكمه في القضية حكم الله من حيث أفعال أهل وقته لا من حيث الشرع المحمدي ألا ترى ما أخرجه أبو عيسى الترمذي في جامعه عن زياد بن كسيب العدوي قال : كنت مع أبي بكر - رضى الله عنه - تحت منبر بن عامر وهو يخطب وعليه ثياب رفاق فقال : قلت لأبي بكر اسكت سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول « من أهان سلطان الله في أرضه أهانه الله » قال أبو عيسى : هذا حديث غريب وعلى ذلك نبه الصديق - رضى الله عنه - فقال : إن لى شيطاناً يعترينى فاجتنبونى إذا غضبت لا أوثرفى أشعاركم وأبشاركم وإذا زغت قومونى ذلك لأنه يعلم سر هذا الأمر وأن فساد الخليفة فساد الأمة وله عون من الله - تعالى - على نفسه كما وصفه الرسول وهو مع ذلك يعلم ما قاله الرسول لأبى عبيدة »

يا أبا عبيدة لا تتأمرن بعدى على أحد وتسمع لتتنزيل ينادى « لولا أن ثبتتاك لقد كدت تركن إليهم » الآية الى قوله « ضعف الحياة وضعف الممات وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله » وكم في التنزيل من أشباه ذلك كقوله تعالى « عفى الله عنك لم أذنت لهم و«لقد تاب الله على النبي» و « لعلك تارك بعض ما يوحى إليك » و « ولعلك باخع نفسك على آثارهم » وإذا كان هذا الرسول فمن المعصوم بعده - صلى الله عليه وسلم - فلا جرم قال عمر : رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبى . وجاءته برود من اليمن فكانت قصته مع سليمان وقال : لولا على لهلك عمر وأمر الله بطاعة أولى الأمر والتأدب عندهم وقص الله - تعالى - علينا من تأدبه - سبحانه - معهم في ذات اليمين وذات الشمال إذ للمراتب حكمها وما نهتدى به فقال - سبحانه وتعالى - في ذات اليمين لداود « ولا تتبع الهوى » الآية كما أسلفنا وفي ذات الشمال قال لموسى وأخيه « فقولاً له قولاً لنا » الآية ولما قال فرعون لموسى لأجعلنك من المسجونين لم ينازع له لحكم المرتبة ولم يرد عليه بل قال « أو لو جئت بك بشيء مبين » وكذلك السحرة لما توعدهم قالوا « إنما تقضى هذه الحياة الدنيا » كل ذلك إقرار بالمرتبة وتنبيه على أن لها التأثير العام وعلى ذلك نبه سهل - رضى الله عنه - بقوله : إذا غفر الله لعبد في ولاية خليفة فأول ابتداء مغفرته للخليفة قبل ذلك العبد ذلك لما ذكرت من أن السلطان بمنزلة القلب والعالم كالجوارح فتعود أعمال الجوارح على القلب وقال سهل أيضاً : السلطان هو القطب لولا القطب ما دارت الرحى فاتفقوا الله في إمامكم فإن به قوام الدين . وقال أيضاً : الخليفة الذي قامت به الدنيا هو أفضل السبعة التي تقوم بهم الدنيا وقال - رضى الله عنه - : إن الخليفة إذا كان غير صالح فهو من الأبدال وإذا كان صالحاً عادلاً منصفاً فهو القطب الذي تدور عليه الرُحا وقيل له أي الناس خير فقال : السلطان فقال السائل : كنا نرى أن السلطان من شرار الناس فقال : مهلاً إن لله كل يوم نظرتين نظرة إلى سلامة أموال المسلمين ودمائهم ونظرة إلى سلامة أبكارهم يعف يعنى النساء الأبكار بوجود السلطان فيطلع في صحيفته فيغفر له جميع ذنوبه وقال : من لا يرى السلطان فهو زنديق . وقال : خمس للسلطان لا تصح لنا إلا بهم الجمعيات يجمعون بنا والحج يحجون بنا والغزو يغزون بنا والأحكام

يحكمون بيننا والحدود يقيمونها بيننا فالواجب علينا طاعتهم وأن نجيبهم بالفرض والسنة والنوافل وفرض علينا أن ندعولهم بالخير والصلاح . وقال : هذه الأمة ثلاث وسبعون فرقة اثنان وسبعون كلها هالكة كلهم يبغضون السلطان والناجية هذه الفرقة الواحدة التي تحب السلطان . وقال : من مات لا يعرف إمام زمانه مات جاهلاً والجاهل في النار قال: ومن قال إن الخليفة في النار فقد قال أن أهل زمانه كلهم في النار . وقال : أول من يعقد للخليفة اللواء الرب عز وجل فوق العرش فإذا أراد الله أن يجعل خليفة في الأرض وضع يده على هامته فمن أجل ذلك تقع الهيبة له في الأرض فيهاب . وقال : لو كانت لى دعوة مستجابة لجعلتها للسلطان.

### فصل

وإذا فهمت هذه الفصول أيضاً، فهمت أن أولياء الله لم يتأخروا عن التصدر إلا نظراً لأنفسهم، وعلماً بأن الطبع يسرق الطبع، وأن الهم تنعش الهم وتصرعها، وأن التصدر يستسرقه طباع المتصدر عليهم، فإنه إذا كان سر الوجود خوطب بما أشرنا إليه آنفاً؛ فكيف يكون حال غيره وقد بينا أن الله - تعالى - لم يجمع الرسالة والملك لأحد غير من ذكرناه، لما في ذلك من الصعوبة؛ ولأن الظاهر يشغل عن الباطن وبالعكس كما أسلفنا.

فأما ذو القرنين فإنه ليس برسول، وقد اختلف في نبوته، مع أنه استوزر حكيمًا يقال فيه أنه نبي، وهو أرسطا طاليس، وفي التاريخ اليوناني: أن الله أوحى إلى أرسطا طاليس إنني إلى أن أسميك ملكاً، أقرب منك إلى أن أسميك إنساناً، لما كان فيه من وزيره الإسكندر.

وأما الخضر فإنه نعم العون على رأى من يراه ولياً من أهل الله، لا يشكون في نبوته وقد استوزره أيضاً، واستوزر عدة من العلماء والحكماء، وبذلك استقام ملكه، فلذلك أمر أولياء الله بالتجرد عن الأسباب، والهرب عن التصدر لا سيما مع عدم الكمال؛ علماً بأن المتصدر قبل الكمال ينقص التصدر وفاعله وينتقص بنفسه، كما أشار إليه البهلول، حيث روى أنه دخل على هارون الرشيد - رحمهما الله تعالى -

فقعد في أدنى المجلس، فناداه الرشيد: ارفع نفسك إلى صدر المجلس، فقال البهلول: مجلس يفنى فأين صدره؟ ثم أنشد:

لا تطلب الصدر بغير الكمال ذاك الصدر صف النعال	كن رجلاً وارض بصف النعال فإن تصدرت بلا آلة جعلت
--	--

فأما مع الكمال فإن العقلاء يختارون التصدر عند وجود آله من الأعوان، فإنهم شرط في الكمال؛ وإن وجد كمال النفس، ومن ثم احتجب القطب شفقة على العالم، ألا ترى أمير المؤمنين علياً عليه السلام - في آخر الأمر دعا إلى الله سبحانه وتعالى - على نفسه بالموت، ودعا عليهم من بعده، وكذلك عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - لما مات أخوه سهل، وولده عبد الملك، ومولاه مزاحم، وكانوا أعوانه على ما كان فيه، بعث إلى عبد الله بن أبي زكريا، وكان من صلحاء الشام، فلما حضر قال له عمر: أتدرى لما بعثت إليك يا ابن أبي زكريا؟ قال: لا. قال: لأمر لست ذاكره لك حتى تحلف. قال: يا أمير المؤمنين لا تسألني شيئاً إلا فعلته، فقال له: احلف لي. فحلف له، فقال: ادعو الله أن يميّتي. فقال: بئس الوافد أنا للمسلمين، وأنا إذاً عدو لأمة محمد ﷺ قال: ها قد حلفت، فقال: الحمد لله ودعا له، ثم قال: اللهم لا تبقني بعده، وأقبل صبي لعمر فقال: وهذا فإني أحبه، فدعا له فمات عمر، ومات ابن أبي زكريا ومات الصبي.

فهل ترى ذلك إلا لأنهم لم يأمنوا أنفسهم مع عدم الأعوان، فلا جرم إنما ابتلى الناس حيث حصل عدم الأعوان وعدم القبول من الأعوان، ولم تنزل الصحابة رضي الله عنهم يستكشفون أحوال أنفسهم سراً وجهرًا، وإذا تأمل العاقل اليسير كفاه، فكيف وقد فتحنا له أبواب جمة تنبه على صحة ما ذكرناه، فلا جرم أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد بقوم خيراً ولى عليهم خيارهم، وجعل فيهم له أعواناً فسلك بهم نهج الاستقامة، ووضع الأمور مواضعها فاستعان بأولي الهمم في الملمات، وبأولي الآراء في المشكلات، وبأولي القوى في الأفعال، وبأولي الفطنة في الأشغال، وبدعاء أولياء الله في صلاح جميع الأحوال، وقدم من يجب تقديمه، وآخر من يجب تأخير، وتظن الحكم الإلهية،

وتأدب بالآداب القرآنية، واقتدى بأولي الأبصار والبصائر، فاجتمعت له القلوب والقوالب، وكان بعون الله هو الغالب.

ولذلك سن الله الاجتماع على الفرائض، وفرض الجماعة في الصلاة لتجتمع القلوب والقوالب، في كل يوم خمس مرات على دعاء واحد، وتوجيه واحد، وفعل واحد، وتجتمع جمعاً أعظم من ذلك في الأسبوع، وأعظم منه في العام، وأمروا بتقديم إمام في ذلك ليجبر من حضر قلبه في شيء، على من غاب قلبه في ذلك الشيء غيبة، فتعود على الجميع صلاتهم تامة، إذ هم كالجسد الواحد فإن يد الله مع الجماعة، ألا ترى السنة جاءت في الاستسقاء بخروج الأطفال والحيوان والنسوان، وأن يستسقوا بأفضلهم، وقد سمعت بقصة أصحاب الهمم الذين منعوا ذا القرنين عن مكانهم، وكانوا أربعين رجلاً، فاستعمل بسببهم الطبول والبوقان والصنوج، وأزعجهم بها فتفرقت همتهم، فدخل عليهم وقد ترى أن الله - سبحانه وتعالى - فرض علينا الصلاة على النبي ﷺ وعلى آله، وضمن لنا مكان الواحدة عشرًا، وأن النبي ﷺ أمرنا أن نسأل له الوسيلة، وأمره الله أن يستغفر لذنبه وللأمة، وأمر النبي ﷺ وعمر وعلي - رضي الله عنهما - أن يسألا أويساً أن يدعو لهما وللأمة، وأن الرسول أمر بالصبر مع أهل الدعاء بقوله (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ) [الكهف: ٢٨]، وأن الصحابة رضي الله عنهم لجأت إلى البراء في وقت الضيق أن يُقسم على الله، ففرج الله عنهم وكم فيهم براء، لو أقسم على الله لأبره، ولكنهم اعتمدوا النص.

وقد كان داود عليه السلام إذا عرضت له حاجة، جاء بزهاد المجاهدين وأقامهم في محاريبهم، ووكل بكل واحد منهم صاحب مزمار؛ ليقطع قلب المصلى بلذة نغمته عن الشواغل، حتى يتفرغ لحاجته داود، فتسرع الإجابة ألا ترى الله - سبحانه - يقول لموسى: «ادعوني بلسان لم تعصني به قال: وأنى لى بذلك يا رب؟ قال: لسان أخيك ألا تراه يقول للداعي لأخيه بظهر الغيب: بك يا عبدي أبدأ» ومن خفي مكر الله ولطفه، ما شرعه من تأليف المؤلفات بالمال، استدراجاً إلى الجمعية وأخذ الهمم بالرغبة والرغبة، ومن ذلك توقف الرسل في أمور كانت تريدها حذرًا من التفرق، مثل توقف



النبي ﷺ عن إعادة البيت على قواعد إبراهيم لحداثة عهد قومه بالكفر، وكان يقول: «إن عشت إلى عام قابل لأجلين اليهود من جزيرة العرب»، وأوصى بإجلانهم منها.

وإذا أراد الله - سبحانه وتعالى - سوءاً ولى عليهم شرارهم، فعكس أمورهم ونكسهم كما قال ﷺ: «في آخر الزمان يكون زعيم القوم أرذلهم» فيكون ذلك سبباً للفرقة والجور، وذلك سبب للفناء، وإن الظلم لو كان في بيت في الجنة لخربه الله، قال سبحانه وتعالى (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا) [النمل: ٥٢]، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه كما أسلفناه، ألا ترى من وضع اللين في موضع الشدة، أو الشدة في موضع اللين؛ استبان خطأه.

ومن خفي لطف الله تعالى تجليه لموسى في عين حاجته، ونعم الباب للقلوب شهوات النفوس، فلو لا تعلق نفوس ما ببقاء الظالم، تعارض نفوس المظلومين لعجل بالعذاب، يقول الله تعالى: «أنا الظالم إن لم أنتقم من الظالم»، وأخبر ﷺ «أن دعاء المظلوم محمول على الغمام».

ومن لطائف الحكايات في ذلك ما بلغنا: أن محمود بن سبكتكين أحد ملوك الإسلام، أرسل إلى بعض ملوك الهند يسأله عن سبب طول أعمارهم مع جدهم الصانع، وتكذيبهم الرسل والوسائط، وقصر أعمار ملوك الإسلام مع التصديق والإيمان؟ فقال ملك الهند للرسول: انظر إلى هذه الشجرة المثمرة، لا أعطيك الجواب حتى تنقلع، ثم أمر بالإدراج عليه والإحسان إليه، فضاق صدره وتعلقت همته بقلعها، فلم يكن إلا مدة قريبة إذ سمع هدة عظيمة، ورأى الناس يهرعون فمشى معه؛ فإذا الشجرة واقعة والملك مفكر، فلما نظر الرسول قال له: اذهب فهذا جوابك، وقل للسلطان هذه همة واحدة، أثرت في شجرة مثمرة، فكيف هم جماعة من المظلومين في قلع الظالمين، ولئن تأملت في سير الفراعنة والهرافلة لتجدن لها سياسة لجندها، ورأفة برعيتهما وميلاً إلى الإنصاف بينها، فكان ذلك من أسباب بقائها، فإن تأثير الهمم البشرية في غالب الأمور لا يكاد يتعدى أسبابها أشباهها، وربما يتعلق بها على الأفراد، ولأنها ترتقي في الناس قليلاً قليلاً في الشر والخير سواء بسواء، أعني: على

حسب توجهها في أي صراط توجهت إليه، فلذلك ترى الإنسان تختلف أحواله في أوقات النشاط، والفرح، والحزن، والغم، حتى إن المريض الدنف تصيبه آنفة، أو خوف مزعج، أو نشاط مفرط، فتنتشر أعضاؤه ويستطيع ما لا يستطيع في الصحة بعضه، وإن الصحيح يعرض له الهم والغم فيعجز عما كان مقتدرًا عليه بسهولة، ومن ذلك أنك ترى الإنسان يوضع له لوح عرض كف وأكثر على الأرض، فيمشي عليه مستعجلاً؛ ولو نصب له ما هو أعرض منه في مكان تحته هواء فارغ، فاستعجل بالسعي عليه، ربما انزلق لاضطراب جسده من قبل وهمه، وقد يتوهم الإنسان المرض فيمرض، وقد يلقي نفسه في المواضع المخوفة بوهمه وإن لم يكن ذلك من عادته.

وقد يوجد ذلك في الحيوان، كالمرضعة تحتمي عن ولدها أشد من حمايتها عن نفسها، وقد يلقي الرجل نفسه في المهالك توهماً بلذة الحمل، ولو بعد الموت، أو توهماً لألم المفارقة للمحبيب، ثم قد يرتقي إلى التأثير في غير أشباحها كالنفوس البهيمية في الإصابة بالعين، فإنه متداول أن كثيراً من الحيوان يضر بالعين، وقد نهى رسول الله ﷺ أن يأكل أحد وعينان تنظران إليه، كذلك فيما يستحسن ويغبط عليه، قال رسول الله ﷺ: «إِن مِّنَ الْعَيْنِ لَمَّا يورد الرجل القبر والجمال القدر»، وقال يعقوب لبنينه: (وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ... الآية) [يوسف: ٦٧] حذرًا من العين.

وفي هذا تأثير نفوس الشجعان في مقابلتهم ما يضعف همهم، ويفرق أوهامهم ويسقط قواهم، ومن ذلك تأثير نفوس سباع الطير في الطير، وسباع الحيوان في الحيوان، حتى إنها لا تستطيع السعي، وإن كان ممكناً لما غلب على أنفسها من الخوف، وهذا ما نبه عليه التنزيل في قوله تعالى (وَيَقْلِلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ)، (وَلَوْ أَرَأَوْهُمْ كَثِيرًا) ... الآية [الأنفال: ٤٣، ٤٤]، فإن النفوس إذا طمعت حرصت، وإذا غلب عليها الخوف آيست.

حتى إن العُجب ليخذل صاحبه إذا اتكل على قوله، وليست تعداده فيسقط حرصه وضده، يحرص نفسه وتبقى همتها في الخلاص قال سبحانه وتعالى (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ... الآية) [التوبة: ٢٥]. كل ذلك تأثير بسيط وقد نبه الرسول ﷺ على الترقى في تأثير الهمم بقوله: «تعلموا اليقين فأني متعلم معكم» وبقوله في عيسى عليه السلام حيث قيل له: إنه كان يمشي على الماء فقال: «ولو ازداد يقيناً لمشى في الهواء».

وأما التأثير المركب فكالدعاء المستجاب، وأنواع العزائم والرقا، فالمؤثر إما نفس الداعي، والراقي والعازم، أو نفس المدعو له، أو المرقا أو كلاهما بواسطة الدعاء لم يقووا على التأثير بدون ذلك، ومن ذلك أنواع السحر والكهانة والشعبذة، وما يقاربها من دعوات الكواكب ونحوها، فإن السحرة يرتاضون بمعارف خواص الكون، والمؤثر بعضها في بعض في خواص الرقا والعزائم، وعلم الحروف والطبائع والطلاسم والعمل بها، حتى تستوي همهم بوساطتها، فتؤثر نهكاً في المتوهم المقصر فتنهكه، وبسطاً في المقصود بسطه، ونيلاً للمقاصد، حتى ربما يسمع منهم من سمع طنين الأفلاك ونغماتها، وكشف له عن المغيبات، وأخبر عن الكائنات، وإلى ذلك أشار التنزيل بقوله سبحانه وتعالى (وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ... الآية) [البقرة: ١٠٢]. فأني قد أسلفت لك أن الملك السليماني هو الظهور بالكمال الإنساني، وأن من الكمال الإنساني معرفة تأثير بعض العالم ببعض، ونبهتك على تأثير بعض العالم ببعض، هذا وأن بعض المحجوبين ينكر تأثير النفوس البشرية والأفعال السحرية، وربما أنكر تأثير الكون رأساً، وأنكر علم النجوم والطلاسم، ولا مستند له في ذلك إلا جهله به رأساً، أو ما جاء في الشريعة من تحريم السحر والنهي عن القسم المذموم من علم النجوم، وسأكشف لك بمشيئة الله - سبحانه وتعالى - عن حقيقة ذلك وأوضحه مع غنى ما سلف، وأبين علة ذم المذموم المحرم من علم النجوم.

فأما السحر مطلقاً فيكفي في إثبات تأثيره قوله سبحانه وتعالى (سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرَهُبُوهُمْ) [الأعراف: ١١٦] وقوله تعالى في موسى (يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى) (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى) [طه: ٦٦، ٦٧]، وقوله تعالى (فَيَتَعَلَّمُونَ

مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ) [البقرة: ١٠٢]، وتواترت الأخبار بأن النبي ﷺ سحر، ونزلت المعوذتان بسبب ذلك.

وأما تأثير النجوم فيدل عليه من السنة ما جاء عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا طَلَعَ النَّجْمُ ارْتَفَعَتِ الْعَاهَةُ عَنْ أَهْلِ كُلِّ بَلَدٍ»، وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - نهانا رسول الله ﷺ عن بيع الثمار حتى تذهب العاهة، قيل: يا أبا عبد الرحمن ما ذهاب العاهة؟ قال: طلوع النجم - يعني الثريا-.

ورأى عليه الصلاة والسلام رجل يحتجم في المحاق فقال: «أما إنه لن ينفعه».

وذكر الغزنون في "عين المعاني" في تفسير قوله - سبحانه وتعالى - (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا) [النازعات: ٥] عن معاذ بن جبل ؓ: أنها الكواكب السبعة، وبلغنا أن عمر ؓ استسقى بالناس بالمنحنى (بالمصلى)، وناد العباس كم بقي لنوء الثريا؟ فقال العباس ؓ: إن العلماء بها يزعمون أنها تعترض في الأفق سبعا بعد وقوعها، فما مضت السبع حتى غيث الناس، وحرارة الشمس وبرودة القمر معلومتان ذوقا لكل أحد.

ومن أعظم الدلائل أحاديث النهي عن القسم المذموم من علوم النجوم، على ما نوره إن شاء الله تعالى، وأما تأثير الرقا والعزائم والطلاسم فالذى يدل عليه أن ما لم يكن فيه رخصة فهو سحر، وقد نص القرآن على تأثير السحر وتحريمه، وما كان فيه رخصة فالرخصة فيه دليل على تأثيره، وقد مضى من ذكر تأثير الدعاء والنفوس والعوالم ما فيه كفاية.

## فصل

اعلم أن العالم وإن كان الله - سبحانه وتعالى - قد أودع فيه من التأثير والتأثر ما سلف ذكره؛ فإنه لا تأثير له من ذاته، وإنما الحق - سبحانه وتعالى - جعل لكل شيء منه مرتبة في التأثير والتأثر على حد معلوم لا يتعداه، وجعل أنواع ذلك الشيء تتفاضل في التأثير والتأثر في تلك المرتبة، فعرف - سبحانه وتعالى - بعض هذه المراتب من شاء، وحجب بعضها عن شاء، ومكن - سبحانه - كل ذي مرتبة من

مرتبتة، وجعله فيها على مقامات معلومة، تمكيناً ببقية عليهم ما شاء، ويعزلهم عنه إذا شاء، وعبر سبحانه وتعالى عن هذا التمكين بالإذن، وعن عدم التمكين بعدم الإذن، فيمتنع التأثير لغلبة سلطان المشيئة على التمكين وعلى عدم التمكين، ويستوي في ذلك طرفا الإباحة والحظر وترك الاستحباب، قال سبحانه وتعالى في عيسى: (وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي) [المائدة: ١١٠]، وكرر الإذن في أعماله لغلبة ظهور التأثير على يديه، فيعلم أنه بالحق أثر ونبه على ذلك بقوله تعالى: (قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ) [المائدة: ١٧] أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه.

وقال تعالى في طرف الحظر والكراهية (وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) [البقرة: ١٠٢]، وقال تعالى في الخمر والميسر (قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ... (الآية) [البقرة: ٢١٩] وأمر بالطب والتداوي، وما جاء فيه من السنة معلوم فبين - سبحانه وتعالى - أنه لا تأثير للعالم دونه على سبيل الاستقلال، وأنه المؤثر خلف حجاب الوسائط لا بالوسائط، ثم نبه عليه الرسول ﷺ في قوله: «إنما أنا رسول وليس لى من الهداية شيء، ولو كانت الهداية إلى لآمن كل من في الأرض، وإنما إبليس قرين وليس له من الضلالة شيء، ولو كانت الضلالة إليه لأضل كل من في الأرض، ولكن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء» وقد نبه الحق على ذلك في أي كثيرة مثل قوله - سبحانه وتعالى - (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) [البقرة: ٢٥٥]، وقوله تعالى (لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ... (الآية) [النبا: ٣٨]، وقوله (لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ) [مريم: ٨٧]، عنده (إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ) [طه: ١٠٩]، (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) [الأنبياء: ٢٨]، (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) [آل عمران: ١٤٥]، فمعنى الإذن تمكين المؤثر من التأثير، والأثر في مرتبته لا الإباحة والتخيير كان معناه التخيير لما قال: (وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) [البقرة: ١٠٢]، فإنه إذا يكون أمراً، والله لا يأمر بالفحشاء، ولا يؤذن بالسحر ولو أذن به لم يكن محرماً، فإن قلت: إنما أذن بالضرر به فهو عين ما قلناه من إبقاء مرتبة التأثير، ولا معنى للضرر به إلا التأثير، وعلى هذا كل ما جاء في التنزيل العزيز مقترناً بـ (لو) فإن حرف (لو) حرف مشؤم لا يكاد يقترن إلا بما لا يكون مع إمكانه غالباً، حتى

قال - سبحانه وتعالى - (لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا) [الزمر: ٤]، (لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا) [الأنبياء: ١٧]، (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ) [الأنعام: ١١٢] (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا) [السجدة: ١٣]، (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا) [يونس: ٩٩].

فنبه - سبحانه - على عظمة سلطان المشيئة، وأنه لو شاء لحول هذه المراتب عن ، وقد أَرَانَا سبحانه وتعالى من ذلك عبرًا وأمثالا كثيرة، فأَرَانَا أن للحديد مرتبة القطع والبأس الشديد، أَبَقَاها عليه سبحانه ما شاء، وعزله عنها حيث شاء في قصة الذبيح وغيرها، إلى الآن ترى ذلك في نفوسنا ونسمع به في غيرنا، وأَرَانَا الماء له مرتبة الإغراق للآدميين، فأَبَقَى ذلك عليه وعزله عنها حيث شاء، حتى مشى عليه موسى وقومه، وعيسى، ومن مشى عليه منا، وأَرَانَا له أيضًا مرتبة إطفاء النار، أَبَقَاها عليه ما شاء وعزله عنها حيث شاء، في غوص الجن لسليمان، وأَرَانَا النار لها مرتبة الإحراق للآدميين، أَبَقَاها عليها ما شاء وعزله عنها حيث شاء، كقصة إبراهيم جعلها عليه بردًا وسلامًا، وأخرج منها ثمرة طيبة.

ومثل ذلك في أبي مسلم الخولاني وغيره، مما رأينا وسمعنا، وأَرَانَا أن السم له مرتبة القتل أَبَقَاها عليه حيث شاء، وعزله عنه حيث شاء في قصة علي عليه السلام حيث سم الله، واستقى السم فلم يضره، وفي قصة خالد بن الوليد سمى الله وتحسا السم فلم يضره، وفي قصة رسول الله صلى الله عليه وسلم في العضو المسموم، وكذلك إن اعتبرت معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء وما أشبه ذلك، فقد فتحت لك الباب، فتبين بما ذكرناه أن أفعال الخلق كلها بإذنه الذي هو تمكينه لهم، وإبقاء مرتبة التأثير عليهم، وبذلك قامت عليهم الحجة وتبين أنه لا فاعل إلا الله، وأن تأثير الأكوان من حيث بقائه عليها مرتبة التأثير التي وهبها لها، فلما خاف الرسول صلى الله عليه وسلم على أمته السحر الذي هو الكفر، أعني: اعتقاد ربوبية الأسباب استقلالًا لظهور التأثير والتأثر، أمرها بالانتزاع عما يؤدي إلى ذلك، فإن معنى السحر في لغة العرب إخراج الباطل في صورة الحق، أي: إقامة السبب مقام المسبب، فلذلك قال سبحانه وتعالى (وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانٍ) [البقرة: ١٠٢] أي: من عم التأثير والتأثر وخواص الأشياء التي بها السحر، ثم نزه

سبحانه وتعالى سليمان فقال : (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا) [البقرة: ١٠٢]، حين نسبوا ذلك إلى الأسباب دون الله. (يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ) [البقرة: ١٠٢]، أي: الطرق التي يقع بها التأثير والتأثر، ويدعون بتلك الطرق والأسباب مرتبة الألوهية، وينسبون ذلك إلى سليمان، وهذا كما فعل السامري حيث علم أن من خاصية الأرواح أنها ما قاربت شيئاً أو واصلت إلا سرت فيه الحياة، ومن خاصية الأشباح أنها ما قاربت شيئاً أو واصلت الأسرى فيه، الموت بحسب الاستعداد، فإن الموت أنواع كما سلف.

قال ابن عباس رضي الله عنه: خلق الله الموت على صورة كبش أملح لا يمر بشيء ولا يجد ريحه شيء إلا مات، وخلق الحياة على صورة فرس بلقاء لا تمر بشيء ولا يجد ريحها شيء إلا حيي، وهي التي كان الأنبياء يركبونها، ومن أثرها أخذ السامري القبضة فإنها تظهر الصورة الجبرائيلية، كما أن الكبش مظهر العزرائيلية، ولكل واحدة من الحقيقتين تشكل وتصور بأنواع شيء، فالصورة العزرائيلية تتجلى للمقبوضين بخصيصة من الخصائص الكبشية، وتتجذب إليها النفوس انجذاب الحديد إلى المغناطيس، وتعرض عن الأشباح.

والنزع هو قوة التجلي من الملك مع قوة تعلق النفس بالبدن، فتفترق الأجزاء المجتمعة لم يكن لها حافظ من أمر الله تعالى، فإن الموت حياة مطموسة، وذلك أن الحياة انقسمت قسمين: أحدهما الحياة المبصرة، وهي حياة التأليف، والأخرى الحياة المطموسة، وهي حياة التفريق المسماة موتاً، فلما علم السامري هذا القدر، اتخذ عجلاً من خلي القوم لما في العجل من خاصية الميل إلى الشهوة، ونقص العقل والشره، والإخلاد إلى الأرض، وما في المال من خاصية ميل النفوس إليه لتميل نفوسهم إليه، وتأخذ من مناسبتة بحظ وافر من نقص العقل، فيسخر بها لبعد مناسبتها المقام الموسوي، إذ قد صار موسى حياة فلا تسمع منه الموتى، إذ لا يفهم عن الإنسان إلا من أشرق فيه شيء مما أشرق فيه، كما أخبر التنزيل في سيد المرسلين (إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى) [النمل: ٨٠]، (لَيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا) [يس: ٧٠]، ثم ارتقب الملك حتى رآه قائماً عند موسى، فعلم أن الحياة قد سرت في الأرض بحسب قبولها، فقبض قبضة من

تراب من أثره، كما ذكر الله تعالى لنا في قوله حاكياً عنه (بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ... الآية) [طه: ٩٦]، فنبتتها في العجل فخار، فقال: (هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى) [طه: ٨٨]، ولو كان اتخذه بصورة إنسان لتكلم وشهد بصدق موسى، وفضح السامري بحسب استعداده أو بصورة حيوان، لظهرت منه صفة ذلك الحيوان، كما قلنا في الماء والثمرات، ألا ترى أن مريم - عليها السلام - أمرها الله بهز الجزع، فسرت فيه الحياة منها؛ فأرطب بحسب استعداده لما في مريم من الحياة من أثر نفخ الروح، ومن ملامسة الروح عيسى، كما يكونوا من جذب الحديد المغناطيس، فيجذب الحديد المغناطيس فيجذب الحديد حديداً آخر، فكذلك تفعل السحرة فيأخذون من تصوير صور معلومة من أشياء معلومة مجموعة من أنواع المعادن والنبات والحيوان، متوافقة الطباع بالموافقة، ومتنافرة للمتنافرة في أوقات تقتضي ما قصدوا من ذلك بأرصاد سعيدة أو نحيسة، يرقونها برقياً مخصوصة من قبل ترتيب المعاني والحروف، ويبخرونها ببخورات مخصوصة من قبل طبائع الكواكب، كل ذلك بحسب المعنى الذي قصده، بعلم يوازنه هذا هو الأمر المحكم عندهم، لتعلقه بالروحانيات والكواكب، بحسب الأرصاد، وقد يتخذون من الأمور المتنافرة أشياء معدودة، بعدد معلوم على اسم من يريدون، فيذرونها بين من أرادوا، فلا يجتمعون بعد ذلك ولو كانوا أخوة، بغير وقت ولا رصد ولا رقية، ويتخذون أشياء متحابية معدودة بعدد معلوم أيضاً، كذلك المحبة لا يحتاج وقتاً، ولا رصد ولا رقية، وهذا الجنس يقدر عليه النسوان والصبيان، وليس شيء من ذلك كله إلا وله ما يبطله بإرصاد ورقى، وعزائم وبخورات وغير ذلك، ومن هذا القسم النيربختيات والخزعبلات.

فأما القسم الأول: فهو من شأن العين بالنجوم وأرباب الكهانة من أهل دعوات الكواكب، فإنهم يعتمدون موافقة طبع الكواكب المقصودة باللبس والأكل، والبخور والرقية والسكنى، والفعل في أرصاد معلومة وينحرفون عما يخالف طبعه من ذلك كله، ويتوجهون إليه في أوقات معلومة بمخاطبات معلومة، ويرتاضون في ذلك حتى يبلغ من إرتياضهم فيه أن يسمعوا نغمات الأفلاك، فيظهر لهم التأثير وينتشر لهم الصيت، وقد أشار التنزيل إلى ذلك بقوله (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أُولِيَائِهِمْ)



[الأنعام: ١٢١]، وأشار إليه الرسول ﷺ في قصة ابن صياد قال: أرى عرشًا طافيًا على الماء، فقال: «يرى عرش إبليس طافيًا على الماء». وبالجمله فحرم رسول الله ﷺ من ذلك ما يطلق عليه اسم السحر، الذي هو إخراج الباطل في صورة الحق، أو يؤدي إليه فيما دون ذلك القدر، مما يستدعي نسيان الحق سبحانه أو جحده، أو الإعتماد على الحجاب المخلوق بدعوى الربوبية، والقدرة والتأثير له تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، حتى حذر رسول الله ﷺ أن تهلك أمته كما هلكت الأمم قبلها بنسيان القدر، الذي هو المشيئة والإذن، إذ النفوس شديدة التعلق والأنس بالأسباب، وحرّم علم النجوم إلا قدر ما يؤدي إلى الهداية مما نذكره إن شاء الله تعالى، لعلمه ﷺ أن علم النجوم عماد السحر والكهانة من السحر، ومؤدية إليه حتى ربما ادعى الجاهل الكاهن النبوة والرسالة، كما فعله ابن صياد على عهد الرسول ﷺ وبعده ابن المقفع وغيره من الرافضة، حتى لقد أمر بنزع الحلق والخرز، وكل ما أدى إلى السحر فهو محرم إن فهمت، حتى لو أن الطبيب ينسب التأثير إلى نفسه أو إلى العقاقير لكان سحرًا حرامًا.

والذي يدلّك على صحة ذلك أحاديث النهي عن ذلك، ومنها ما نوردّه لنستدلّ به عليه، فمن ذلك قول ابن عباس - رضى الله عنهما - قال عليه الصلاة والسلام: «من اقتبس علمًا من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر» قال ابن عباس: معنى قوله (شعبة من السحر) أنه يؤدي إلى الكهانة، فهذا دليل على تأثيرها بالإذن وعلى ما جعل الله - تعالى - فيها من العلامات الإحكامية إن فهمت، وعلى أن العلة في تحريمها ما ذكرناه من أنها داعية للتكذيب بالقدر، لذلك على ذلك ما تواتر عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أخاف على أمتي تكذيبًا بالقدر وإيمانًا بالنجوم».

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ «إن في أمتي أربعًا من الجاهلية ليسوا بتاركيهن، الفخر في الأنساب، والطعن في الأحساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت»، هذه كلها كما ترى داعية القدر.

وعنه أيضًا عليه الصلاة والسلام فيما رواه عمر رضي الله عنه «لا تسألوا عن النجوم، ولا تفسروا القرآن برأيكم، ولا تسبوا أحدًا من أصحابي» فإن ترك ذلك الإيمان

المحض لعلمه بما جرى بين الصحابة، وكان أمر النجوم وتفسير القرآن لا يطلع على حقيقته، وحقيقة ما جرى بين الصحابة إلا مخصوص من الله ﷻ وقليل ما هم، فأمرهم أن يكلوا ذلك إلى الله تعالى.

وروي عنه ﷺ فيما رواه ابن مسعود «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا» فنبه على كلة أمر ذلك إلى الله حذرًا من تكذيب القدر؛ إما بالإيمان بالاستقلال، أو بإنكار ما وضع الله تعالى فيها من التأثير، وقارنها بالقدر وبأصحابه لما جرى بينهم، فكل من نهى علم النجوم هذا شأنه.

ومن ذلك ما روي عنه ﷺ أن أخذ بيد عمه العباس ﷺ حتى خرج به من المدينة وقال له: «هذه جزيرة قد برأت من الشرك ما لم تضلهم النجوم. قال: قلت: يا رسول الله وكيف تضلهم النجوم؟ قال: يقولون إذا أصابهم الغيث مطرنا بنجم كذا وكذا».

وروي عنه ﷺ زيد بن خالد الجهني قال: مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ فلما أصبح قال: «ألم تسمعوا ما قال ربكم الليلة؟ قال: ما أنعمت على عبادي من نعمة؛ إلا أصبح فريق منهم بها كافرون، وفريق منهم بها مؤمنون، فأما من حمدني على سقايي فقد آمن بي وكفر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فقد آمن بالكواكب وكفر بنعمتي».

وقال ابن عباس - رضى الله عنهما -: إن قومًا ينظرون في النجوم ويحسبون أبجد، وما أرى للذين يفعلون ذلك من خلاق.

وقال له ميمون بن مهران - رضى الله عنهما -: أوصيك بتقوى الله تعالى، وإياك وعلم النجوم، فإنه يدعو إلى الكهانة، وإياك أن تذكر أحدًا من أصحاب محمد ﷺ إلا بخير، فيكبك الله على وجهك في جهنم، فإن الله تعالى أظهر بهم هذا الدين، وإياك والكلام في القدر فإنه ما تكلم به إثنان إلا أثما، أو أثم أحدهما، فما أنكر الرسول وأصحابه - سلام الله عليهم - علم النجوم، وإنما نهوا عنه لما ذكرناه من خشية التوجه إلى المخلوقات، بسبب ما وضع الله تعالى فيها كما توجهت إليها الأمم السابقة، فمنهم من عبدها استقلالاً، ومنهم من جعل لها منزلة الوزارة والحجة

والتقريب، تعالى الله عما يقول الظالمون، فقالوا: (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) [الزمر: ٣].

حتى ولقد حرم النبي ﷺ الرقى الأعجمية إلا ما أمن فيه من الشرك، وكان يستعرض الرقى فيجيز ما أمن فيه من الشرك، قال ﷺ: «أقرب الرقى إلى الشرك رقية الحية والجنون» وروى جابر ﷺ أنه كان بالمدينة رجل يكنى أبا مذكر، يرقى من العقرب ينفع الله بها، فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا مذكر ما رقيتك هذه اعرضها علي؟ فقال أبو مذكر: شبحنة قرينة بحر قفطي، قال رسول الله ﷺ لا بأس بها. قال: هذه مواثيق أخذها سليمان بن داود - عليهما السلام - على الهوام».

وكذلك روى عمران بن حصين - رضى الله عنهما - أنه ﷺ رأى في عضد رجل حلقة من صفر فقال: «ما هذا؟ قال: من الواهنة. قال «انبذها عنك، فإنها لا تزيدك إلا وهناً، لو مت وهي عليك وكنت إليها».

وعن أبي قلابة ﷺ أنه ﷺ قطع التيممة من قلادة الصبي، وهو الشيء يحرز في عنقه من العين، فما أنكرت الرسل علم السحر والنجوم ولا تأثيرها وتأثير الأكوان بإذن الله، وإنما أمرت بالتجافي عنها حذر الهلاك، وحرمت السحر لأنه كفر، ألا ترى أنه غلب على ظنون كثير من المنجمين بأن كل شيء يخسر للكواكب في يومه وساعته، لما رأوا من تأثيرها في علم الكهانة والسحر، فهم أشد كفراً.

ومن علم الكهانة علم ابن صياد، ألم ترى الرسول امتحنه فقال: «إني خبأت لك خباءً» وأضمر الدخان. فقال: هو الدخ، وكان ابن صياد تنام عيناه ولا ينام قلبه، وكان النبي ﷺ يختبئ له لسمع ما يقول ولمكانة علم النبي ﷺ قال: لابن صياد «أتشهد أنني رسول الله؟ قال ابن صياد: أشهد أنك رسول الله ورسول الأميين، ثم قال لرسول الله ﷺ أتشهد أنني رسول الله قال ﷺ: آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله» كل ذلك منه ﷺ حذراً من مكر الله أن يكون له في ابن صياد خفي علم فيما إدعاه، ألا ترى قوله سبحانه تعالى (وَلَيْنَ شَيْئًا لَّنْذَهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) [الإسراء: ٨٦]، ويشبه هذا من الرسول ﷺ ما سلف ذكره من قول الخليل (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا) [الأنعام: ٨٠]، فاستثنى حذراً

من مكر الله، لما اطلعت الرسل عليه من عظمة سلطان المشيئة، فوكلت الأمر في سعة العلم إلى الله تعالى، وقد أمرنا الكتاب والسنة أن نتعلم من علم النجوم، وما نهتدي به في الظلمات قال سبحانه (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) [الأنعام: ٩٧]، وقال سبحانه (جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ) [يونس: ٥]، (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا) [الفرقان: ٦١]، (رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ) [غافر: ١٥]، (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ) [التكوير: ١٥]، (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا) [النازعات: ٥]، (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) [الرحمن: ٥]، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن خيار عباد الله الذين يراعون الشمس والقمر والنجوم والأظلة، الذين يحبون عباد الله إلى الله ﷻ ويحبون الله إلى عباده» وقال: «أحب عباد الله إلى الله ﷻ رعاة الشمس والقمر، الذين يحبون عباد الله إلى الله، ويحبون الله إلى عباده» وقال سبحانه وتعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ) [يونس: ٥]، وقال: (وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) [يس: ٣٩]، (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا) [الفرقان: ٦١] (رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ) [غافر: ١٥]، ( فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ) [التكوير: ١٥]، (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا) [النازعات: ٥]، (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) [الرحمن: ٥].

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : هي ثمانية وعشرون منزلة التي ينزلها القمر في كل شهر، أربعة عشر شامية، وأربعة عشر يمانية، وأولها الشرطين، والبطين، والثريا، والدبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنثرة، والطرف، والجبهة، والزبرة، والصرفة، والعواء، والسمالك، وهو آخر الشامية، والغفر، والزبان، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، ومقدم الدلو، ومؤخر الدلو، والرشاء، وهو آخر الأربعة عشر اليمانية، وقال سبحانه وتعالى ( تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا) [الفرقان: ٦١].

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : البروج هذه الإثني عشر برجًا أولها الحمل، ثم الثور، ثم الجوزاء، ثم السرطان، ثم الأسد، ثم السنبلة، ثم الميزان، ثم

العقرب، ثم القوس، ثم الجدي، ثم الدلو، ثم الحوت، وقال سبحانه وتعالى (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ \* الْجَوَارِ الْكُنَّسِ) [التكوير: ١٥، ١٦].

قال ابن عباس - رضى الله عنهما -: هي النجوم السبعة زحل، وبهرام، وعطارد، والمشتري، والزهرة، والشمس، والقمر، وقال: خنوسها رجوعها، وكنوسها تغييبها، وسائر النجوم تكنس بالنهار، وتخنس بالليل، أي: تظهر، وقال سبحانه (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) [الرحمن: ٥]، فعلم الحساب، والأوقات، والهيئات، وعلم المنازل، والبروج، والمطالع، والمغرب، وتسيير الكواكب لأوقات الطعن، والإقامة، والزراعة، وضراب الحيوان، والاهتداء في البر والبحر، كل ذلك فعل مأمور به، وأصح الوجهين لزوم الصوم بمعرفة الحساب دون الرؤية، وفي ذلك أسرار يطلع عليها المنجمون، اللهم إلا من كان ربانيًا عالمًا بالنجوم، فإن الأسرار التي أشرت إليها من شأن أرباب القلوب، وإلى ذلك الإشارة في قوله عليه الصلاة والسلام «إن لربكم في ساعات دهركم نفحات فتعرضوا لها» وقد خص الله - سبحانه وتعالى - أوقاتًا معلومة، وأبهمها على غير أهلها، وأنت لا شك أن الزمان حركة الفلك، فاكشف بهذا القدر عن رمد التقليد، وبالله التوفيق والله أعلم.

## فصل

اعلم أنك إذا فهمت ما أسلفته لك، فهمت أن المحرم من جميع هذه التأثيرات والمؤثرات، والأفعال والأقوال، والعلوم المشار إلى جملتها ما كان سحرًا، وقد عرفت أنك أن السحر إخراج الباطل في صورة الحق في اللسان العربي، فالسحر من كل ذلك ما أهل به لغير الله، ولم يذكر اسم الله عليه، واعتمد به غيره، ونُسب إلى غيره، وأدى إلى الإغتماد على غيره، والنسبة إلى غيره مما لم تأذن به الشريعة، وما سوى ذلك فلا بأس به.

وإذا علمت ما أسلفت لك أيضًا وتأملت؛ تبين لك أن كل ما اعتمده الأولون من الطلسمات والرقى، والتعزيات والبخورات قربان إلى الكواكب، ووقوف مع الطبائع والحركات، وأنواع الأرصاد والمقارنات، والاتصالات والانفصالات، وليس شيء من

ذلك إلا وله ما يبطله ويعارضه، وذلك محض السحر، وعلمت أن الإنسان بنفسه هو الطلسم الأعظم، والقربان الأكرم، الجامع لخصائص العالم، فهو قربة إلى مكوكب الكواكب سبحانه، ومن أجل هذا الطلسم خدمته الكواكب، ألا تراه سبحانه وتعالى يقول: (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ) [الباقية: ١٣]، وأنى وأين يبلغ تأثير الكواكب مع مكوكبها؟ فعليك بحله تسعد سعادة الأبد، ويكون الكون في تسخيرك، فبحره ببخوراته المشروعة له من الصوم الذي قد جاء فيه «إن خلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك»، والصدقة التي تطهره وتزكيه وارقه برقاه من الذكر والتلاوة للتنزيل العزيز، وأعظم قرباته الصلاة، فإنها تجمع جميع أنواع البخورات والرقى، والطهارة والزكاة (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) [العنكبوت: ٤٥] والحج فإنه يجمع ذلك كله.

واعلم أن الأعمال الشرعية والأفكار بخوره، والأذكار رقيه، والهمم ناره، وعن التلاوة تتولد الأحوال، وعن الأحوال تتولد المعارف الإنسانية والعلوم الربانية، وعن المعارف والعلوم تظهر الآثار بالهمم أيضاً، قال سبحانه (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ\* لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ... الآية) [التكاثر: ٦، ٥]، وقال ﷺ «لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور، ولزلزلت بدعائم الجبال».

وقد زعم قوم أن التأثير للأحوال، فإن أرادوا ما ذكرناه فهو حق، وإن أرادوا أن التأثير للحال وإن لم ينتج علماً فهو غلط، فإن الحال إن لم ينتج معرفة لم ينتج تأثيراً يعلم ذلك من له ذوق فيما نقول، وذلك أن العقل له العلم، والتأثير مدسوس في كل شيء مطوي، وأول مبادئه في الإنسان الوهم، فإن الوهم مفتاح التأثير في أكثر العالم بحسب إمداده واستعداده واستمداده، فلا يزال يتميز في الإنسان حتى يصير عقلاً؛ لأن الإنسان خلق من ضعف صورة ومعنى، كما قال سبحانه (خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً) [الروم: ٥٤]، والنفس تنمو وترتقي في العلم كارتقاء الجسم إلى زمن التوسط والاستواء والاستيفاء، وهو زمن القوة العارضة بالجعل، فله التأثير للاستقلال برأيه مع عدم استقرارها فيه، فيؤثر فيما توجهت إليه همته، فإن التأثير لا يكون إلا مع الحجاب، إذ لا يكون إلا بالجمعية والضيق عن السعة، لما سوى ما اجتمع

له، فابتداء الميل إلى جهة الكمال تبثدي السعة للمقابلة، وعدم الضيق حيي، يرى فيه كل راء صورته، فيكون كما قال سبحانه وتعالى في التنزيل العزيز (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا) [البقرة: ٢٦]، ويرجع إلى الضعف عن التأثير أيضًا كما أشار إليه التنزيل العزيز بقوله (ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً) [الروم: ٥٤]، كذلك في الصورة والمعنى ألا تراه يقول: (لَكَيْلًا يَعْلَمُ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْنًا) [الحج: ٥]، فنكر علمه وخصصه، ونفى ما سواه لإنفراده هو، وشبهه من الناس به فلم يبق له تأثير بشيء؛ إلا المزيد مما هو فيه فلعوم سعتة لا يختص بشيء عن شيء، إذ هو مرآة قابلة لكل شيء، ومن وسع الله سبحانه وتعالى لم يضق عن شيء، ومن هذا شأنه لا تؤثر همته في شيء أبدًا؛ إلا لعدم الهمة، ولكن لعوم سعتة فليس فيه ضيق، فيحدث عنه تأثير لأنه يقابل كل شيء منه شيء، فهو عين الحياة، ومصدر الكائنات، وصاحب هذا الوصف لا يدوم عليه الكشف عن المغيبات، ولا تؤثر همته في تقليب الكائنات، فإنها به تكون، والتأثير الظاهر والكشف الدائم من صفة أهل الإنحراف إلى جنة الأرواح واللطافة، عن جنبه الأشباح والكثافة أو إلى جنبه الأشباح والكثافة، عن جنبه الأرواح واللطافة وأهل التقريب على كلا الطرفين (الصراطين) فإن التقريب بهذا الطلسم إلى الحق - سبحانه وتعالى - كما أشرنا إليه من كلا اليمينين، قال - سبحانه وتعالى - «لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل... الحديث»

فأهل اليمين من المقربين يشهدون اللوح والقلم، والعرش والكرسي، والكتابة والكتاب، والتفصيل والتوصيل، واليمين ويسامرون الأملاك، ولكل منهم مقام معلوم، يقف عنده إن وقفت به همته، ويتقدم إذا نهضت به قسمته، وأهل اليمين الأخرى يشاركون هؤلاء في سماع الهواتف، ومشاهدة الروحانيات، وكشف بعض المغيبات، وتأثير الهمة في بعض الكائنات، وسماع نغمات الأفلاك، إلى نحو ذلك مما سلف.

ذكر عن ابن صياد، وشبهة، وأميرة ابن أبي الصلت، وشق، وسطيح، وأهل الكهانات كالسامري ونحوه، وقد سمعت ما يروى عن فرعون من دعواته في خلواته، وما يظهر عن همته من الآثار في الأقطار، ومن ذلك ما جاء في وصف الدجال،

فتأمله من ظهور نار وجنة، وإحياء وإماتة، وجبال من ثريد إلى غير ذلك، فمن هؤلاء البدلاء، والنقباء، والنجباء في الجانبين.

وأما صاحب الوصف الأول فكلهم في دائرته، يتأثرون عنه لقربهم منه، ويجرون بتصرفه في علمهم وأعمالهم، بعلمهم وبغير علمهم، وبعلمه وبغير علمه، فإنه على حياة أهل اليمينين، وبحياة أهل كل يمين تتصل حياته إلى الباقيين من الأقرب فالأقرب منهم له، فإن أهل كل يمين أموات بالنسبة إلى أهل اليمين الأخرى، فهم لا يستمدون منهم لما ذكرناه من حكم الغلبة عليهم، وما لم يكن فيهم ولهم مناسبة ظاهرة يستمدون بها منهم، قال - سبحانه وتعالى - لرسوله (إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى) [النمل: ٨٠] فهذا سماع التأثير ليس سماع القول؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - نادى قتلى بدر وأقسم أنهم أسمع لقوله من أصحابه الذين كانوا معه عند الله، ومثل ذلك قوله - سبحانه وتعالى - (قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) [الأنفال: ٢١] وذلك أن الرسول ﷺ حياة أهل اليمينين، به حياة عالم الحياة وعالم الموت، فليس أحد في العالمين على السواء بحسب استعداد القوابل، وليس كذلك من دونه من أهل اليمين، فإنهم يجمعون الحياة والموت، فيسمع منهم الأموات بجزئهم الميت المناسب لهم، ما يستمدونه بجزئهم الحي المناسب لحياة الرسول أو حياة وارثه، الذي استمدوا به منه، فيغلب جانب الخير فيهم على جانب الشر، ويمدون أهل ذات الشمال بما فيهم من المناسبة لهم بالموت، فتسري بهم الحياة اليمينية بقدر استعدادهم، فتغلب حياتهم الموتية المعبر عنها (أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ) [النحل: ٢١].

وأهل اليمين الأخرى أيضاً يستمدون منه العكس، ويمدون كذلك أهل اليمينين لما أعلمتك من أن الإنسان مرآة الأكوان، وأن الكل فيه، وإنما يضاف إلى ما غلب عليه، ولذلك أن مكة تضاعف فيها الحسنات والسيئات؛ لأنها حضرة الله من الأرض، فالمادة فيها سارية إلى الجانبين من أجل ذلك كان عمر ﷺ يخرج الناس منها بعد الحج كلاً إلى وطنه، وينهى عن الإقامة فيها، وكذلك أكثر الصحابة والتابعين، وأكثر أهل الأحوال يشكون تبدل الأحوال عليهم فيها، وظهور كوامن الصفات، وكذلك صاحب هذا الوصف المقدم لا ينبغي لأحد الإقامة عنده؛ إلا قدر التعلم والزيارة على غاية



الإجلال والإحترام؛ إلا من كان الأغلب عليه الحياة اليمينية، فإنه يستهلك بقيته عاجلاً، ولهذا السر أمر أولو العزم من الرسل بالقتال، إذ لا يقبل منهم إلا من سرت فيه الحياة، ولم تبق له همة التأثير، قال لوط (لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً) يعني همة مؤثرة (أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ) [هود: ٨٠] - يعني قبيلة يقاتلهم بها - وقيل لسيد المرسلين لما لازم على إسلام أبي طالب: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) [القصص: ٥٦]، ولما قنت على من قنت عليه من المشركين قيل له: (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ... (الآية) [آل عمران: ١٢٨]، فهم يقاتلون بالصورة هم وأتباعهم، وإن كان أكثر أتباعهم لا يعلمون، وأما من دون أولي العزم فليس عليه إلا البلاغ، وأن المعرفة قد منعت عنه الهمة المؤثرة؛ لأن علمه علم واحد لا يعلم من بعده شيئاً، والتأثير ليس إلا لاختلاف العلم كما سلفت لك، فإن المراد أنك لا تسمع الموتى إسماعك الأحياء، فمن فهم ما قلناه وأدركه التوفيق؛ تابع الإمام المقدم، سيد العرب والعجم، ورفض ما أمره برفضه، ولازم على ما أمره بفعله، فحصل ما وعده - سبحانه وتعالى - حيث يقول: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ... (الآية) [آل عمران: ٣١]، ومن أحبه الله كان منه كما وصف، فبه يقول، وبه، وبه، ومن كان منه كما وصف، فما الذي يصعب عليه.

فقد تبين لك أن هذا النوع الشريف طلسم العالم، وأنه ينقسم إلى طلسم سعادة، وطلسم شقاوة، فطلسم السعادة هو الذي بخر بالعمل الصالح الذي أمر به الرسول، فيحصل به القرب الكامل من حيث اليمين بحكم اليمين، وطلسم الشقاوة هو الذي بخر بالعمل السيء، من أنواع السحر والكهانة، وارتكاب المحارم، فالعمل السيء لهذا الطلسم كالثوم للمغناطيس، يحجب منه خاصية جذب الحديد، والعمل الصالح كالماء يحجب الثوم عن منع الحجر، ف يعود إلى أصله من الجذب كما قال ﷺ: «أَتَبِعَ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحَّهَا» وكما قال سبحانه (يُحِبُّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) [آل عمران: ٣١]، وكما قال سبحانه (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) [محمد: ١٧]، وقال في الآخرين (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاتَهُمْ فَتَبَّطَهُمْ) [التوبة: ٤٦]، فإنما كره منهم روائح العمل السيء، كما أحب روائح العمل الصالح، ولما كان الرسول قد جاء بحل هذا الطلسم الأعظم الذي جعل الله العالم ممسوكاً به ولأجله،

وجعله مغناطيساً للعالم؛ نهى سبحانه وتعالى ونهى الرسول عن التعلق بالأكوان لما يحصل في ذلك من الكفر والفرقان، علماً بأن حقيقة التأثير للإنسانية بالخلافة الإلهية (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ) [الحج: ٦٢]، (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ) [محمد: ١١] فلذلك أن السلف ﷺ أخذوا بالأصل، فاعتمدوا تقوى الله سبحانه وتعالى فكفاهم ( وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ) [الطلاق: ٢].

وروي أن مسافر بن عوف قال لعلي ﷺ حين انصرف من الأنبار إلى النهروان: يا أمير المؤمنين لا تسر في هذه الساعة، وسر في ثلاث ساعات من النهار، فقال علي ﷺ: ولما؟ قال: لأنك إن سرت في هذه الساعة أصابك وأصحابك البلاء وضر شديد، وإن سرت في الساعة التي أمرتك فيها ظفرت وأصبت ما طلبت، فقال علي ﷺ:- ما كان لمحمد ﷺ منجم ولا لنا من بعده، هل تعلم ما في بطن فرسي هذه؟ قال: إن حسبت علمت، قال علي: من صدقك بهذا القول فقد كذب القرآن قال الله ﷻ (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ...الآية) [لقمان: ٣٤]، ما كان محمد ﷺ يدعي ما ادعيت علمه، تزعم أنك تهدي إلى الساعة التي يصيب السوء من سار فيها، قال: نعم، قال: من صدقك بهذا القول فقد استغنى عن الله في صرف الضرر وجلب النفع، وينبغي للمقيم على أمرك أن يولييك الحمد دون الله، لأنك أنت بزعمك هديته إلى الساعة التي ينجو بها من السوء، فمن صدقك بهذا القول لم آمن عليه أن يكون كمن اتخذ من دون الله نداً وضداً، اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك، ثم قال له: نكذبك ونخالفك، ونسير في الساعة التي تنهانا عنها، ثم أقبل على الناس فقال: يا أيها الناس إياكم وتعلم النجوم إلا ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر، إنما المنجم كالكاfer، والكاfer في النار، والمنجم كالساfer، والساfer كالكاfer، والكاfer في النار، والله لئن بلغني أنك تنظر في النجوم وتعمل بها؛ لأخلدنك الحبس ما بقيت، وبقيت أنت، ولأحرمنك العطاء ما طال لى سلطان، ثم سافر في ساعته التي نهاه عنها فلقي أهل النهروان وظفر بهم وقتلهم، ثم قال: لو سرنا في الساعة التي أمرنا بها لقال قائل: سار في الساعة التي أمر بها المنجم ما كان لمحمد ﷺ

منجم، ولا لنا من بعده، فتح الله علينا بلاد كسرى وقيصر وسائر البلاد، أيها الناس توكّلوا على الله تعالى واتقوا الله تكفّروا ما سواه.

## فصل

فطلّاسم السعادة من جميع البشر، كل من صفى سره، من فتح قلبه وطهر لبه، فهو على الله يعتمد، وإليه يستند، ولا يعوق عن الطاعات، فإنها بخوره الذي يحل به عقد السموات، كما أشار إليه سقراط حيث يقول: اشتباك نغمات الأصوات في هياكل العباد يحل ما تعقده الأفلاك الدائرات، مع صفاء النيات يحل عقد السموات، وطلّاسم الشقاوة من جميعهم كل من انقل قلبه وتكدر لبه، كما أشار إليه التنزيل في قوله - سبحانه وتعالى - (أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) [محمد: ٢٤]، قال سهل رحمه الله: (أَقْفَالُهَا) جهلها، ومفاتيحها قراءة القرآن ترتيلاً، ومسألة الله سرّاً وعلانية بالدعاء والتضرع إليه، والسكون بين يديه، وانتظار الفرج من عنده افتقاراً إليه، كما قال - سبحانه وتعالى - (أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) [فاطر: ١٥]، ولا يتيسر ذلك جملة إلا لمؤمن، قال - سبحانه وتعالى - (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ) [التغابن: ١١]، أي: لا انتظار الفرج فيما يسأله ويدعوه، وقال عليه السلام: «إذا ظهر في العبد خصلتان فقد دنا هلاكه، ترك الطاعة ومنع الدعاء»، وقال عليه السلام: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء، وإن لم يسأل يغضب، وأفضل العبادة انتظار الفرج»، وقال: «لا تعجزوا عن الدعاء، فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد»، وقال: «إن الله يحب الملحين في الدعاء»، وقال: «إذا سألت الله شيئاً فاسأله الفردوس الأعلى، فإنه لا يتعاضمه شيئاً فليكثر إنما يسأل ربه»، وقال: «يسأل أحدكم حاجته كلها حتى يسأل شسع نعله إذا انقطع، والملح لعجيبه، وعلف شياته».

وعن كعب أن الله قال لموسى: «يا موسى اطلب العلف والرفق لشاتك، ولا تستحي أن تسألني صغيراً، ولا تخف مني بخلاً أن تسألني عظيماً، يا موسى أما تعلم أنني خلقتك وخلقت الخردلة فما فوقها، وإنني لم أخلق شيئاً إلا وقد علمت أن الخلق يحتاجون إليه، فمن سألني مسألة وهو يعلم أنني قادر أعطي وأمنع، أعطيته مسألته

مع المغفرة، فإن حمدني حين أعطيته وحين منعته، أسكنته دار الحمادين، وأيما عبد لم يسألني مسألتة، ثم أعطيته كان أشد عليه عند الحساب، ثم إذا أعطيته فلم يشكرني عذبتة عند الحساب».

وبلغنا أنه كان من دعاء سفيان الثوري رحمه الله: يا من يحب أن يُسأل، ويغضب على من لم يسأله، يا من أحب عباده إليه من سأله، فأكثر سؤاله، وليس أحد كذلك غيرك، يا كريم، ويا من أبغض عباده إليه من لم يسأله، ولم يطلب منه، وليس أحد كذلك غيرك، يا كريم، ويا من أحب عباده إليه من يسأله العظيم، ولم يعظم عليك، وعزتك عظيم يا عظيم.

وقد أثنى - سبحانه وتعالى - على أنبيائه بالدعاء فقال - سبحانه وتعالى - **(وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا)** [الأنبياء: ٩٠]، وقال في ايوب: **(نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)** [ص: ٣٠] أي: رجوع إلى الله، والدعاء بالتضرع والاستكانة، ولما كان الدعاء هو حلها وقربانها، وبخورها وفتح أقفالها، وجب أن نبين حقيقة الدعاء بحسب ما تحتمله أفهام العامة، ونقرب للخواص إشارة إلى ما يتعلق بهم ويفهمه أهله.

فنقول على سبيل الإجمال: أن الدعاء هو العبادة التي يجمعها الافتقار والالتماس قال - سبحانه وتعالى - **(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)** [غافر: ٦٠]، فأخبر أن المتأخر عن دعائه متكبر عن عبادته، ومستحق لعقوبته، وبَيَّن أن دعائه عبادته، وأنها هي الإستجابة له، لأنه خلق الجن والإنس ليعبدوه، وقال ﷺ: **«الدعاء هو العبادة»**، وفي حديث **«الدعاء مخ العبادة»**.

وقال سهل رحمه الله: الدعاء التبري ممن سوى الله، والخدمة التوحيد، فذلك قوله سبحانه وتعالى **(قُلْ مَا يَعْْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ... الآية)** [الفرقان: ٧٧]، فأخبر أنه لولا دعائهم لم يعبا بهم، أي: لولا تبريهم من الحول والقوة، وإقبالهم بالإفتقار والاستكانة إليه، فكذلك قوله - سبحانه وتعالى - **(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ... الآية)** إلى **(المُحْسِنِينَ)** [الأعراف: ٥٥، ٥٦]. أخبر أن التارك لدعائه معتد

مفسد، وأن الداعي محسن، وقال سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ...الآية)، إلى (يُرْشِدُونَ) [البقرة: ١٨٦]، يشير إلى ما أشار إليه فيما روى عنه نبيه ﷺ في حديث التقريب، وإلى ما أشار إليه في قوله - سبحانه وتعالى - (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) [فاطر: ١٠]، وإلى ما أشار إليه الرسول ﷺ في المشهور من أحاديث (النزول إلى سماء الدنيا، والنداء بهل من سائل)، وذلك أن الأرواح هي الكلم، كما قال سبحانه في عيسى روح الله وكلمته، والطيب منها ذوات الإستقامة، والعمل الصالح يرفعه هو: الدعاء الذي هو التقريب بالنوافل، الذي عنه تكون المحبة، وعن المحبة كان السؤال، وعن السؤال كان العطاء الذي هو «كنت سمعه الذي يسمع به...الحديث»، والكلم الطيب له الصعود والعروج، تشريقاً لأنبيائه - عليهم الصلاة والسلام - على الأبرقة، ومن دونهم على الرفوف، وليس كذلك غير الطيب، فإنه لا تفتح له أبواب السماء .

ولما كان الدعاء هو العبادة التي هي العمل الصالح، تنوعت العبادة بتنوع الكون الإنساني، الذي هو العابد بين قول، وعمل، ونية، وقد قال عليه الصلاة والسلام «لا يقبل الله قولاً بلا عمل، ولا عملاً بلا نية»، وذلك إنا قد بينا أن الإنسان بجملته عقل، فهو مدعو بكليته من كليته، فما دعا به اللسان ليس هو ما دعا به البصر، وما دعا به البطن ليس هو كما دعا به الفرج، وكذلك بقية الأعضاء، فالنية من شأن لطيف، والقول والعمل من شأن جثيم، ولا بد في القول والعمل من النية، ولا بد من العمل فيما يقتضي العمل، والكل عمل، فالنية عمل القلب، وباقي الأعمال عمله مع توابعه، ألا ترى الأعضاء تشهد على الجملة وتقول: (أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) [فصلت: ٢١]، فتشهد لها ولكل شيء بالنطق، إن فهمت ما أشرت إليك فهمت عبادة العالم.

ثم اعلم أن لكل نوع من الأنواع الثلاثة: النية، والقول، والعمل، أدب مخصوص قد جاء به الشرع، فلا سبيل إلى السعادة الكسبية إلا به (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) [آل عمران: ٣١]، (مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) [الحشر: ٧]، فأهل المخالفة له ﷺ هم أهل العمل السيء، الداعون لله باسمه المضل، المنتقم، ونحوهما من الأسماء، فذلك العمل الصالح لها،

فهو جورها وفتحها من عالم الشقاوة، وقفلها من عالم السعادة، إن فهمت فهم المجابون من قبل هذه الأسماء، والمرادون من حيثها، والمجيبون بها، فإن فهمت ما ذكرته لك تبين لك أن الحق سبحانه لم يعط شيئاً إلا بدعاء، فمن ذلك ما يمكن إدراكه لكل أحد غالباً، ومنه ما يصعب إدراكه، فأول دعاء كان من الكون هو استعداده وقبوله التكوين، وأول استجابة له من الحق إيجاده على حسب ما أعطاه من علم باستعداده، وقبوله من حيث إمكانه، بحسب اختلاف أعيانه المتعددة حال ثبوتها في القدم، ثم الاستعداد والإمكان والقبول للإعطاء؛ هو استجابة الدعاء الذي هو الاستعداد والقبول للإستعداد والقبول، فكل عطاء هو سؤال العطاء، وأول ظهوره من اسم الله الطالب، فالعطاء إذا نسب إلى المعطي الحق سُمي ذاتياً، لأن مقتضيه الذات لا موجب له غيرها، فهو وتري لا تعدد فيه، ولا تفصيل، ولا تمييز وإنما يتميز ويتعدد من نسبته إلى الخلق المعطي، فيسميه أسمائاً لتعدد بتعدد القوابل، ومن تعدد القوابل ظهرت الكثرة في الأسماء.

فالعطاء وتري أحدي، والاختلاف من قبل المعطي، كما ترى الشمس نورها من حيث هي وتري أحدي، ومن حيث القوابل مختلف، بحسب الصفاء والكدورة، واللطافة، والكثافة، والصقالة، والدرن، فمستفيد نوراً ينعكس منه نور كالمرآة والماء، ومستفيد نارية يحرق غيره بها، ومستفيد نارية يحترق بها بنفسه، ومستفيد نوراً على ظاهره لا يتعداه، وكذلك الماء واحد والثمار مختلفة، والنفخة الواحدة تشعل الحشيش الذي يكون النار، وتطفئ المصباح، فالإمداد من حيث المدد واحد، ومن حيث القوابل المستفيدة المتعددة مختلف، وعلى ذلك نبه - سبحانه وتعالى - بقوله: (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) [الإسراء: ١١٠]، يقول: (أَيًّا مَا تَدْعُوا) من هذين الإسمين الدالين على الذات بالألوهية والرحمة، (فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) أي: فهو جامع للأسماء الحسنَى، فكل اسم منها نعت له، ودال عليه من حيث المعنى الذي تعين لاسمه الله الذي لا إله إلا هو، أو لاسمه الذي هو الرحمن، ذلك الاسم، فكل اسم منها نعت له، ودال عليه من حيث المعنى الذي تعين للألوهية والرحمة، وذلك الاسم.

فإن فهمت هذا فهمت تسبيح الكون وحياته، ونطقه وصلاته، وتسبيحه وذكره، فكل ذلك عبادته، وعبادته دعاؤه، وإن غلب اسم الدعاء على السؤال اللفظي لما فيه من إظهار التملق والأملق، والذلة والانكسار والافتقار، والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى، والتبري من الحول والقوة إليه، والإقبال بالكلية عليه، فذلك أمر لا يثبت عليه إلا قلوب اصطنعها الله لنفسه، تتوب من قبل أن تذنب، وتثاب من قبل أن تطيع، وتشكر من قبل العطاء، لأن شكرها الذي هو السؤال قد تقدم، فالله سبحانه وتعالى أكرم من أن يحاسب سائلاً على مسئول، وقد تقدم شكره عليه، ألا تراه ﷺ يقول: «أفضل العبادة انتظار الفرج» فلذلك يقول سبحانه وتعالى: (أعطيته مسألة مع المغفرة)، وليس كذلك العطايا الابتدائية فإنها تقتضي الشكر أيضاً، ألا تراه يقول: (وأما عبد لم يسألني، ثم أعطيته كان أشد عليه عند الحساب) فإني قد بينت لك أن معنى كون الحق كنزاً، أي: باطناً، هو اتحاد الأسماء الدالة على مسمى واحد هو الذات، عرية عن الأحكام والنسب والإضافات، فكأنه سبحانه يرى ذاته بالاتحاد الصرف المطلق؛ لا بالتكثر الأسمائي المتقابل.

ومحبته هو تجليه لذاته بتميز الأسماء بعضها عن بعض، وليست الأسماء إلا ظهور الآثار، ولا المحبة إلا الإرادة، ولا الإرادة إلا المشيئة، ولا المشيئة إلا الرحمة، ولا رحمته إلا محبته، ولا محبته إلا كونه معروفاً بالتميز الأسمائي، ولا كونه كذلك إلا تجليه بتميز بعض الأسماء المتحدة عن بعض، وليس ذلك إلا ظهور الآثار، وليس ظهور الآثار إلا الأكوان، وليست الأكوان إلا الأسماء، وليست الأسماء إلا الذات، فأبهم الأمر لافتقار بعض هذه الأسماء إلى بعض في الظهور والتميز الذي هو كون بعضها ببعض، وحدوث بعضها عن بعض على ما يأتيك بيانه، فالرحمة في افتقار بعض أسمائه سبحانه إلى بعض، وتوقف بعضها على بعض، وكون بعضها عن بعض، فإنه رحمها بها وكملها بها، من حيث غيره لا من حيث هي هي، وذلك أن كمال المراتب الوجوبية؛ يكون بمعرفة المراتب الإمكانية، التي هي مسماة من بعض الوجوه بالغير، فرحمها بإيجادها إياها وتجليه لها، لتقابل النسب الوجوبية النسب الإمكانية، فتعلمها وتشهدها وتراها، وليست غيرها إلا بهذا التميز النسبي الحكمي،

فيحصل للحق - سبحانه وتعالى - من هذا الإيجاد اسم المكمل المظهر المبطن إلى جميع الأسماء، وهو بنفسه كامل ظاهر باطن عن نفسه من حيث تميز الأسماء، فصح له اسم الكريم لما لم يدخر من المراتب شيئاً، ولو ادخر شيئاً لتطرق إليه اسم البخل، تعالى الله عن ذلك.

كل ذلك من حيث الأسماء لا من حيث أحدية الذات فهي نسبة اسم إلى اسم، وصفة إلى صفة كما ترى، فإن علم الحق سبحانه وتعالى بذاته نسبة عقلية حكمية، اعتبارها من حيث تعلقها بالذات، وكونها صفة لها لا من حيث معلومها الذي هو الذات المعلومة؛ يقتضي بأنها هي لا غيرها، ومن حيث هي نسبة إداراكها لها يقتضي تمييزها عنها، وإطلاق الغير عليها من حيث الحكم التمييزي لا من حيث الوجود العيني المغاير بعض التغاير، لأنها غير موجودة خارج الذات وجوداً عينياً، وليست بمعدومة أيضاً لوجودها في ضمن الذات، متميزة باسم العلم، فهي قائمة بين الوجود والعدم؛ لا موجودة منفردة ولا معدومة غير موجودة التميز، ويقتضي أن اعتبار هذا التميز الحكمي قد أوجب للذات التي هي الأصل، الذي العلم متعلقها من كونه حالاً لها، وشأناً من شئونها اسم العالم.

وللذات الحاصلة في العلم من حيث مقابلة العلم للذات؛ مقابلة المرآة للناظر اسم المعلوم، من كون العلم مشتملاً عليها، فحصل من ذلك أن لفظة العالم تدل على ذات عالمة، وعلم، وذات معلومة، وهي ما حصل في العلم من مقابلة الذات العالمة؛ لا تدل على الذات منفردة عن العلم والمعلوم، ولا على العلم منفرداً عن الذات ومعلومها، والذات مسبحة منزهة عن أن تكون محلاً للحوادث، أعني: محلاً لطروء شيء أجنبي خارج عنها عليها، فصح أن العلم والمعلوم هو الذات لا غيرها، وإنما امتاز عنها امتيازاً حكمياً نسبياً، لا عينياً.

وهذا الإمتياز النسبي هو الحدث، الذي هو الكون، أعني: الحال الذي أوجب كون الذات عامة ومعلومة، وتسميتها لأنه اعتبار يميز الذات العالمة في العلم القديم، عن العلم والمعلوم، ويميز العلم عن الذات العالمة والذات المعلومة، ويميز الذات



المعلومة عن العلم والذات العالمة، وليس ذلك كله غير الذات، وليس هذا الكون غير الذات، فإن الصفة هي الموصوف حقيقة؛ وإنما كانت غيره من حيث الاعتبار النسبي الحكمي، الذي هو الكون المعبر عنه بكانت عالمة، وكانت معلومة.

فلهذا جنح السلف ﷺ إلى أن قالوا: أن الأسماء والصفات لا هي المسمى الموصوف، ولا هي غيره، يعنون أن مغايرة الاسم للمسمى، والصفة للموصوف ليست إلا اعتباره في الذهن، أو قل في العلم اسمًا له وصفة، يشار بها إليه، وهذا أحسن القول بعد علم حقيقة الأمر، فإن القول بامتنياز الذات مغايرة للأسماء محض التغاير؛ كفر صراح حاكم بالثنوية، ولو كان الأمر كذلك لم يقل - سبحانه وتعالى - (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) [الأعلى: ١]، فأحالنا على الاسم، والقول بإثبات الذات بغير الأسماء جهل وتعطيل، فإن فهمت هذا؛ فهمت من أين تطرق لفظ الكون، الذي هو الحدث إلى الذات المقدسة اعتبارًا نسبيًا إليها، لا إلى غيرها نزولًا وتقريبًا.

فالمعبر عنه بالكون الذي هو الحدث هو مصدر أسماء الذات وغيرها ومميزها، فإن الذات المقدسة من حيث أحديتها ليست مصدرًا لشيء، ولا متصفة بصفته، ولا مسماة باسم أصلًا البتة، وهذا ما أشار إليه النحويون بقولهم: الحدث المصدر، وهو اسم الفعل، والفعل مشتق منه، والحدث هاهنا هو الذات المعلومة، تقرب ذلك عليه أن حصول العلم للذات بالذات المعلومة للعلم؛ متوقف على حصول الذات التي هي معلومة للعلم، وحصول الذات المعلومات للعلم؛ متوقف على مقابله للذات التي هي صفتها، وعنها تحدث عند علمها، فهذا التوقف الاعتباري النسبي هو الحدث الذي هو الكون، وهو الذي أحدث للعلم صفة الإمكان والكون والافتقار إلى الذات المعلومة، وأحدث بالذات المعلومة صفة الإمكان والكون والافتقار إلى الذات التي بها يتعلق العلم، وأوجب للذات التي بها يتعلق العلم نسبة الحدوث بكونها عالمة، وكونها عالمة متوقف على العلم والمعلوم، فالحادث نسبة العلم إليها، وحصول العلم بها لها في العلم وذلك حصوله لها، فالقدم والوجوب صفة للذات من سبقها النسبي على العلم والمعلوم، من حيث هما صفتها ومتعلقها، والحدث صفة لهما من حيث هذا الوجه، والقدم والوجوب صفة لهما من سبقهما النسبي عليها، من حيث تسميتها عالمة فإنها لا تسمى

عالمة إلا بهما، والحدث صفة لها من حيث هذا الوجه الذي هو توقف تسميتها عالمة، وهو حدوث بالنسبة إلينا لا إليها، وهو حدوث وقدم، وإمكان وكون بغير تغاير ذاتي، ولا حدوث بعد عدم؛ بل تغاير بالمراتب والنسب، والأحكام والصفات، لا بالذوات، ولا بتوهم الزمان والمكان، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فحقق يا وليي هذا تفهم ما جاء من وصف الله - سبحانه وتعالى - في التنزيل العزيز، وعلى ألسنة الرسل بالكون في غير آية، وغير حديث، وإطلاق لفظ الجعل عليه سبحانه، كقوله سبحانه (وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً) [النساء: ١٣٤]، فإنه سبحانه سميع بصير لذاته بذاته، كما رأيتك في العلم، وقد جاء في العلم، (وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً) [النساء: ١٧٠]، والآيات في الكون كثيرة، والحديث معروف «كنت كنزاً مخفياً»، «وكنت سمعه الذي يسمع به»، وكذلك اجعل، قال سبحانه وتعالى: (وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ) [البقرة: ٢٢٤]، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً، (فَلَمَّا تَوْفَّيْتِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ) [المائدة: ١١٧]، فمعنى كون الشيء كذا اتصافه بتلك الصفة من تلك النسبة التي اقتضته، أي نسبة كانت من ظهور أو بطون، أو خالقية أو مخلوقية، أو غير ذلك، واستقري الآيات واسبرها بهذا الأصل، تجده كما ذكرت لك.

واحذر دواب البحر فإنها مؤذية جداً، فإن لم يكن لك بد من مثال محسوس، (وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) [النحل: ٦٠]، (وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) [إبراهيم: ٢٥]، فأنت مثلاً لو اعتبرت شخصين في مكان، متلاصقين محض التلاصق، لا اعتبرت بينهما انقسام المكان، فليس مكان كل واحد منهما مكان الآخر، ولا بين المكانين فرق وتمييز إلا الشخصين، وليس أحدهما متميزاً عن الآخر بشيء آخر، وبهما أو بأحدهما يتعين في المكان القبل والبعد، والفوق والتحت، واليمين والشمال، وبارتفاع الشخصين أو الشخص يرتفع الإنقسام، والتعدد في المكان والجهات، وباعتبارهما ليس الفوق أسبق من جهة أخرى، وكذلك سائر الجهات، ومثل ذلك اعتبار الزمان، قال الشاعر :

كهز الرديني ثم اضطرب

وأنت لا تشك أن زمان الهز هو زمان الاضطراب، وإنما جاء بـ (ثم) لأن الهز متقدم الرتبة، لا زماناً ولا مكاناً، ولا وهماً ولا عددًا، ولكن باعتبار أنه لازم الهز لا غير، وكذلك علمه سبحانه بذاته لازم لذاته، بغير سبق زمني ولا مكاني ولا وهمي، وكذلك سائر أسمائه وصفاته، تعينها وتميزها هو الحدث الذي هو الكون المميز بين الذات والصفات، وليست الذات أسبق من الصفات، ولا الصفات أسبق من الذات، ولا الذات والصفات أسبق من الحدث، الذي هو كونها موصوفة بالصفات، فإنه صفة منها، وليست الصفات غيرها، وليس بين الحق والخلق زمان، ولا انفكاك بمكان ولا توهم، وإنما هو تقديم رتبة، وتميز بنسبة، كما بينت لك من أن الذات من حيث أحدثتها، الذي هو اعتبارها من حيث هي ذات أحدية مفردة عن الأسماء، التي هي الكون ما لها نسب، ولا اسم، ولا صفة، إلا (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ...) السورة .

ومن حيث الكون الذي هو الأسماء متكثرة في وحدتها، متميزة بذاتها عن ذاتها يصح تقدمها عليها، أعني: تقدم اسم على اسم كما بينت لك، من تقدم الذات العالمة على العلم، والذات المعلومة رتبة نسبية في مقابلتها للعلم؛ لتظهر الذات المعلومة فيه، ومن تقدم الذات العالمة حصول المعلومة في العلم، على حصول العلم للذات العالمة، وكذلك باقي الأسماء على الإطلاق، فإن الربوبية تدل على رب يربي مربوبًا، والرازقية تدل على رازق ومرزوق، والأولية تدل على تقدم ومتقدم عليه، والآخرية تدل على آخر ومتأخر عنه، ثم عن وجود هذه النسب يقتضي تقدم بعضها على بعض أيضًا في أبسط من ذلك، أعني: من حيث اعتبار نسبة بعض هذه النسب إلى بعض، كما ترى نسبة الواحد إلى ذاته نسبة واحدة، هي عين أحديته لا واحديته، ونسبته إلى الثاني هي واحديته، ويقال عليه أيضًا بالنسبة إلى الاثنين نصف، وهو واحد وواحديته من وجه أحديته، ومن وجه غيرها كما أخبرتك، وكذلك إلى الثلاثة ثلث، وإلى الأربعة ربع، وهكذا إلى العشرة عشر، وإلى المائة عشر عشر، وإلى المائتين نصف عشر العشر، وكذلك إلى ما لا يتناهى، وهو الواحد بنفسه معبر عنه بهذه العبارات لاختلاف هذه النسب.

## بلغة الغواص في الأكوان إلى معدن الإخلاص

فإذا قيل: ما نصف الاثنين؟ فالجواب: واحد، ونعني بالواحد أحديته. وما ثلث الثلاثة؟ فالجواب: واحد، ونعني به ذلك، هكذا إلى آخر العدد وهو لا يتناهي، فاعتبارك هذه التسميات من حيث هي عبارات عنه ذواتًا قائمة الاعتبار بنفسها هي فيه غيره، وإذا اعتبرتها من حيث بعضها منسوب إلى بعض، فهي متغايرة، وإذا اعتبرتها من حيث الواحد بنفسه فهي هو لا غيره، كذلك إذا اعتبرت الأسماء والصفات من حيث دلالتها على الذات المقدسة فهي هي لا غيرها، إذ الذات بنفسها كاملة للإحاطة بجميع النسب والإضافات، ليس فيها من حيث أحديتها افتقار إلى شيء، فنسبتها بذاتها ونسبها وجميع حقائقها على ما هي عليه من الوجود والعدم علم هو هي لا غيرها، وإلى المقدورات قدرة ليس غيرها، وإلى جميع الكوائن حال كونها اختيار وقدرة وإلى المختار قبل اختياره قضاءً ومشيةً، وإلى تعيينه بأحد الجائزين إرادة، وإلى إلزامه كونه أمر، وإلى صرفه عنه نهى، وليست هذه كلها غير الذات المنزهة، ولكن لما توقف ظهور تأثير بعض الأسماء على بعض، أو قل على تأثير بعض، توقف تسمي الذات ببعض الأسماء على تسميها ببعض، فصح افتقار بعض الأسماء إلى بعض، فسميت من حيث افتقارها إليها ممكنة، ومن حيث غناها وتأثيرها واجبة، وليس الإمكان إلا الحدث والكون والتكوين، وليس الوجوب إلا الأحداث، فصح عليها مجعولة مكونة إلى غير ذلك، وليس ذلك إلا منها وليست غيرها، فصح على الحادث من حيث هو حادث فقير متأخر، وأنه مرآة القديم الذي هو الواجب في رؤيته أسمائه، وعلى القديم أنه مرآة قديم الذي هو الواجب في رؤيته أسمائه، وعلى القديم أنه مرآة الحادث في رؤيته نفسه، أي: في بروزه له وليس أحدهما غير الآخر، فاختلط الأمر وانبههم على أهل الأفكار والعقول المعقولة، فقصروا عن هذا الإدراك وهم لا يشعرون أن قصورهم نسبة من نسب تجلي الذات لها باسم من أسمائها، التي هي الكون ظهر بهم وهو الاسم المانع، فبطن هذا العلم عنهم، فكان الحق من حيث هم من هذا الوجه كنزًا عنهم.

ولا يهولنك ذلك بعد ما بينت لك، أن شأن أسماء الحق تنقسم إلى مؤثر، ومؤثر فيه كما يرى من كونه عالمًا بذاته، معلومًا لذاته، وشاهدًا بذاته، ومشهودًا لذاته، فليس ذلك إلا فاعلاً ومفعول، فالفاعل يسمى من حيث هذه النسبة حقًا، والمفعول يسمى من

حيث نسبته إلى الفاعل كونًا وخلقًا، ومن حيث هو مفعول، فالحكم لله، وهو الحاكم على نفسه بهذه الأسماء، وهو الكاتب على نفسه الرحمة، وليست نفسه إلا ذاته، وليست الرحمة المكتوبة عليها إلا أسماؤه، التي هي الكون، وليس الكون إلا إبداعه، وليس إبداعه إلا تجليه له لا غير ذلك، وإلى ذلك أشار بقوله (سُئِرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) [فصلت: ٥٣]، وكذلك قال - سبحانه وتعالى - (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا) [ص: ٢٧]، فسمى الحق سبحانه كل شيء موجود حقًا على الإطلاق، وما قدر وجوده ولا بد منه كذلك، فإن الحق اسم الله من كونه موجود في البطون والظهور، وفي البطون الظهور، وفي الظهور البطون والظهور، وليس الباطل إلا العدم الذي هو زوال صورة إلى صورة أخرى، فزوال الظاهر بطونه، وليس الظاهر والباطن إلا الحق بالذات خلف حجاب الوسائط، التي هي صنعته التي بها تظهر معرفته، فلا يصعب عليك هذا، فليست الوسائط إلا أسمائه وصفاته، وليست أسمائه وصفاته غيره، فإنه قد سمي نفسه حقًا، ووصف نفسه بالكون وليس الكون إلا ظهوره له وبطونه، وظهوره له وبطونه عنه ليس إلا تجليه بأسمائه، وقد انبسطت أسماء الله الخالق على مظاهرها من الخلق، فسمى الموجودات والمقدورات، والمقدر وجودها حقًا، فالموت حق خلق، والميت حق خالق، والحياة حق خلق، والمحيي حق خالق، والقبر حق خلق، والمقبر حق خالق، والعذاب حق خلق، والمعذب حق خالق.

ثم انبسطت المظاهر فاستحدثت أسماء تختص بها، فالنار مثلاً صورة تعذيب الله تعالى، فهي صورة اسمه المعذب، ومظهره وداره، وعلى هذا القياس إن فهمت، فالموت حق هو بطون حقيقة حسن الصورة، التي كانت مظهر اسم من أسماء الحق وصورته، وموت الموت بطون صورة اسمه المميت فافهم، وقد استبان لك ما أشرت لك إليه من افتقار بعض هذه الصفات والنسب إلى بعض، وأن ذلك هو الرحمة التي هي رحمته إياها بها، وتكملها بها وليست غيرها، وقد انفتح لك الباب فُجَّ بقدر ما يُوهب لك.

واعلم أنه لما كانت الأسماء الإلهية متلازمة هذا التلازم، وكان شأنها دورياً، وبعضها مغناطيساً لبعض في قضية العقل فليستدعيه، فالاسم العليم يستدعيها ظهورها وبطونها وتعددتها، وغير ذلك ليعلمها كذلك، والاسم الحسيب يستدعيها بعددها، والاسم الواهب يستدعي افتقار بعضها إلى بعض، والاسم القهار يستدعي استيلاء بعضها على بعض، والاسم الشهيد يستدعي ظهورها إلى آخر الأسماء، وكان الكون أيضاً متلازماً، وبعضه مغناطيساً لبعض في قضية الحس والعقل، إذ ليس غيرها، عِلْم ذلك من علمه، وجهل ذلك من جهله، فالحديد يجذبه المغناطيس بخاصية بينهما ومناسبة، ثم الحديد يجذب حديدًا آخر، وإنما ذلك بظهور خاصية من خواص اسم الله الطالب في الحجر، هي الغالبة عليه بالنسبة إلى الحديد، فأكسبته ذلك حتى تأثر وأثر، والثوم يبطل جذبه للحديد بخاصية فيه من خواص اسم الله المانع هي الأغلب على الثوم من حيث النسبة إلى الحجر المذكور، وإن كان ليس من الأكوان شيء صغير ولا كبير؛ إلا والأسماء مشتركة فيه متداخلة متلازمة، ولكن الصفة من حيث الغلبة بالنسبة إلى المقابل، كما تقول الأطباء في الشيء الفلاني حار يابس، وفي الآخر بارد رطب، ولا شك باحتوائه على الطبائع الأربع، إنما وصف بالأغلب ظهوراً عليه، فالنار حارة بالنسبة إلى النبات والحيوان والجماد، ما خلا أشياء سلف ذكرها، وكذلك اسم الله ظهر في الثوم بالنسبة إلى الحجر بالمعطي الذي أعطى كل شيء خلقه، أي: خصوصيته المؤثرة لأنه أعطى الثوم منع الحجر صفة الجذب للحديد الخاص به، وظهر اسم الله للحجر بالنسبة إلى الحديد بالمانع؛ لأنه منعه للجذب الخاص به فافهم ما نبهت عليه من غرائب العلوم، فقد جعل الله - سبحانه وتعالى - لكل مغناطيس شاغلاً يشغله عن التأثير فيما شأنها التأثير به، وجعل لذلك الشاغل شاغلاً يشغله عن شغله، فجعل الصفة العزرائيلية مغناطيساً عند مشاهدتها بنوع اختصاص يتجلى به تفارق الأرواح أشباحها، وتصعد إلى عالمها، ولكن بشرط زوال العوائق الشاغلة لها من سلامة التركيب وصلاح المزاج وغير ذلك.

وقد جعل الله - سبحانه وتعالى - لعوائق هذا الحديث عوائق تعوقها عن العوق كالماء لغسل الثوم من الحجر، فيستدعي حضور الملك وتأثيره، وهو أنواع شتى لا

يحيط بها إلا الله - تعالى - فمنها ما يفسد التركيب من هدم بنيانه وفساد مزاجه، كلسع الحيات وأنواع السموم، وأصوات حيات معروفة قد ذكرناها ورؤيتها، وأوهام أهل الأوهام وغير ذلك، وجعل الصفة الروحانية الجبرائيلية العلمية، مواصلة للنفوس الإنسانية، مؤثرة فيها وحيًا وكشفًا، وإلهامًا على أنواع شتى، وجعل النفوس المتأثرة منها مؤثرة لغيرها بشرط السلامة من العوائق الشاغلة التي تكسيها الكثافة من أنواع ما حذر الله منه، من العمل السيء الذي هو لها بمثابة الثوم للمغناطيس بالنسبة إلى الحياة العلمية، وجعل العمل الصالح لها مطهرًا من العمل السيء ورافعًا لها إلى الصفة الجبرائيلية كما قال سبحانه وتعالى (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) [فاطر: ١٠] وأخبر الرسول ﷺ بذلك بقوله: «المرء على دين خليله»، «المرء مع من أحب»، «المرء مع جليسه»، وأخبر التنزيل بذلك في غير آية (مَنْ عَمَلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا) [فصلت: ٤٦]، ( إِنْ أَحْسَنْتُمْ أُحْسِنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) [الإسراء: ٧]، وقد جعل الله سبحانه التجاذب والمناسبة بين بعض الأشياء من حيث الانفراد، وبين بعض من حيث التركيب .

## فصل

وإذا علمت أن الدعاء هو العبادة، وأن العبادة الإنسانية قول وعمل ونية، وأن القول والعمل لابد فيهما من النية، وأن النية المؤثرة من ثمرات القول والعمل بالنية، فينبغي أن يعلم المقصود منه، فنقول وبالله التوفيق:

أن الأسرار الإنسانية أصلها الطهارة من رجاسة الشرك بالذات، فإنها على الفطرة كما قال ﷺ، فطهارتها هي سبب انقيادها لكل ما قابلها، كما أشار إليه الرسول ﷺ بقوله: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه...» الحديث، والنجاسة فيها عارضة من قبل الكون، فلذلك أمكن زوالها، فهي بمثابة الماء كما أشار عليه الصلاة والسلام إليها بقوله: «الماء طهور لا ينجسه شيء إلا ما غير طعمه أو ريحه» الحديث، ولا معنى لنجاستها إلا النظر إلى الكون بعين المحبة المحضة، قال - سبحانه وتعالى - (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) [التوبة: ٢٨]، وإنما كانت

بمثابة الماء، لأن الماء لا لون له إلا لون إنائه، فكما أن نجاسته ليست إلا ملاصقة أجنبي يزيل لطافته ورقته من أنواع النجاسات، أو يحجبها من الطاهرات وذلك لا يكون إلا لقلّة الماء وغلبة الملاصق، فيحمل الخبث ويسلب الطهورية لضعفه؛ إذ لا يبقى فيه متسع لغير ذلك الملاصق، فكما أن الملاصق للماء من الأجنبي هذه الملاصقة من الطاهرات يسلب طهوريته، ومن النجاسات ينجسه، فكذلك الكون كله يحجب الأسرار عن الله تعالى، فاللطيف وما يتعلق باللطيف يحجبه مع الإسلام، والكثيف وما يتعلق به يحجبه مع الشرك، ومعنى اللطيف هنا المحبة لأجل الله بأمر الله.

ومعنى الكثافة: الغيبة عن الله، فمحبة الكون دون الله هي نجاسة اللطائف الإنسانية، فالكون من هذه النسبة بالأصل نجس كله بالنسبة إلى اللطائف، وطهارته عارضة فزوالها ممكن، ومتى استولت الأسرار الإنسانية على ظواهرها طهرت بطهارتها لاستهلاكها فيها، فالبحر هو الطهور مأوه الحل ميتته، ومتى استولت الظواهر على أسرارها أصابتها نجاستها لضعفها، فحجبها كما ترى المرأة الصقيلة لا يبدو فيها صورة إلا ما يقابلها، فإذا لاصقها القلع تجلى فيها، فحجب لطافتها عن تجلي غيره، ولا معنى لزوال النجاسة من الماء إلا زوال ما حجب لطافته بكثرتة، فيغلب ما خالطه ويستهلك فيه، أو بوجه ما يردّه إلى أصله، ولذلك اعتبر الفقهاء الزوال طهارة، والستر على حاله، وهو منشأ القولين في التراب، هل هو ساترًا ومزيل؟ ولا معنى لصقالة المرأة إلا زوال ذلك الملاصق من القلع الحاجب غيره عن التجلي فيها؛ ليتجلى فيها ما يقابلها.

وكذلك الأسرار الإنسانية أصلها طهارة الإيمان من النشأة والميثاق، فلا تقيد لها بجهة ولا كون، فلذلك كانت مرآة تجلي الحق الذي لا يتقيد بجهة ولا كون ولم يسعه غيرها، ولا معنى لنجاستها إلا الشرك الذي هو التقيد بصور الأكوان، فإذا أعظم منجس لها أقرب الأكوان إليها نسبة وملاصقة، وهو بمثابة قلع المرأة الذي هو أعظم حاجب لها، أعني: أخلاقها، وعلى ذلك نبه - سبحانه وتعالى - بقوله (وَيْبَاكَ فَطَهْرٌ) [المدر: ٤]، ولم يقل فؤادك فطهر؛ لأن تطهير الطاهر تحصيل حاصل، فإذا زال الملاصق لها المستولي عليها، أو استهلك فيها عادت إلى الطهارة، فثيابك هي



صورتك ينبغي أن تكون مستهلكة في أظيفتك أو تبعًا لها، فتظهر بطهارتها كما قلناه في البحر إن فهمت.

ولذلك طريقان: أحدهما طريق طهارتها بإزالة نجاستها، وردها إلى أصلها وهي طريقة أهل النعوت والأسماء المعروفة بكسر الصفات، وهي لعامة الخاصة التي لا يثبت عليها ويستكملها إلا الخاصة من الخاصة، فإنها خطاب للجميع من حيث اجتماعهم، وخطاب للخواص من حيث هم نسخة العالم، وهي الآن طريق الملامية ضنائن الحق فحول الحقيقة، وهي الذكر الحقيقي الذي جاءت به الشريعة المطهرة لمن عقل عن الله تعالى، وعليه كان السلف الصالح - رضوان الله عنهم - فالكامل فيها قطب وقته، بيد أنه قد اندرس سيرها حتى صارت كهيئة المستنكرة؛ لأن هذا الزمان هو الذي أشار إليه الرسول ﷺ بأن يكون المنكر فيه معروفًا والمعروف منكراً، فالسالك فيها على وجه الاختيار، والعمل يحتاج إلى الاحتراز والاحتياط حذرًا أن تعترضه العوارض، فيميل مع نفسه عليها؛ إذ هو مدع قيامه لله، والله عليه حقوق، وله على الله حقوق جعلها الله - سبحانه وتعالى - على نفسه تكملاً، ولنفسه عليه حقوق جاء الكتاب والسنة بذلك كله، والله - سبحانه وتعالى يقول -: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُم عَنْهُ فَانْتَهُوا) [الحشر: ٧]، سواء كان ذلك لنفسك أم عليها قال ﷺ: «فمن رغب عن سنتي فليس مني» وليس كذلك الكامل المشار إليه، فإنه قائم عند الميزان يأخذ لنفسه ومنها، فلا يكون ظالماً لنفسه ولا لغيره، فأنت مطلوب برد الأمانة إلى أهلها، فإن أردت الخلاص فائق نفسك بين يدي من هي له، فإن تولاها هو - سبحانه وتعالى - بنفسه، وغيبك عنها فبها ونعمه، وإن ولاك عليها فتوليته بتوليته - سبحانه وتعالى - إياك، فهو وليها فيمدك ويهديك ويؤيدك، وإنما يتيسر لك ذلك في أحد اثنتين: حسناهما إن ظفرت بها أن تلق نفسك بين يدي متحقق باتباع الرسول عليه الصلاة والسلام لقوله - سبحانه وتعالى - (ادْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) [يوسف: ١٠٨]، وقد ذكرنا ذلك في مسائل [رسائل] كثيرة فتبقى وفقاً على إرادته.

وقوله: (لا اختيار لك بنفسك) بلا لم ولا كيف ولا إلى أين؟، والأخرى: أن تحكم الشريعة المطهرة على جملتك كما أنبهك عليه إن شاء الله، فما عضده كتاب أو سنة أو

إجماع الأمة أو قياس صحيح عملت عليه، وما نهاك عن شيء من ذلك انتهيت عنه، فهذه دون الأولى من حيث تصرفك على نفسك باجتهادك من وجه، فإن للنفوس دقائق في أهويتها، فإنك محتاج إلى معرفة مدة الهدنة معها، وأحكامها وأحكام حروبها وأخذ الجزية منها، ووقت نبذ العهد إليها ووقت معاداتها وأسرها، ومعرفة ما أشار إليه التنزيل في نحو قوله تعالى (مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ... الآية) [الأنفال: ٦٧]، وقوله (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ... الآية) [النساء: ١٥].

ومشكلات كثيرة لا يكشفها لك إلا صدقك، فيأخذ - سبحانه وتعالى - بيدك وينبهك على هفواتك في غفلاتك لتستيقظ، وتشهده أيضاً متصرفاً على نفسك من ذاتك؛ لأنك نائب الرسول على نفسك، فالمتصرف بها الشريعة، إذ هو سبحانه قد ولاك عليها فقال: (بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ \* وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) [القيامة: ١٤، ١٥]، فاجعل الحق شاهد قلبك، واعمل على اتباع أمره واجتناب نهيه؛ قطعاً لما سواه عن قلبك، فمتى لاحظت نفسك سواه عجلت عقوبتها بما يقتضيه حالها، وقرأت عليها (فَأَيُّهَا تَوَلَّوْا فِتْنَمُ وَجْهَ اللَّهِ) [البقرة: ١١٥]، وأقمت عليها الحدود والتعذيرات على حسب جنائتها ابتغاء وجه الله اقتداءً بسيدك وصحبه الطاهرين، ولا تتوقف على جهل من جهل حاله وأنكره، ضل أو اهتدى، فإن الفساد في القوالب المحتجبة [المتحجبة] بسوء أفهامها، (وَأَوْحِي إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ) [هود: ٣٦]، ألا ترى المطر ينزل من السماء لا يخص مكاناً ولا أحداً، فمن احتجب بحائل احتجب عنه فكان حرمانه منه، فلم تطبق الناس على اتباع الرسل، وإنما اتبعهم من كان منهم، والتنزيل العزيز (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) [فصلت: ٤٢]، (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ) [البقرة: ٢٦]، لوجود الريب منه في أفهامهم (وَأِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا) [البقرة: ٢٣]، ولا ريب فيه، فلا يشغلنك عن طريقك قول قائل، وتوقف متوقف، وإن كنت تريد سلامته، هذا الرسول عوتب على إقباله على كبراء المشركين، وما فعل ذلك إلا استمالة لقلوبهم إلى الإسلام بقوله - سبحانه وتعالى - (أَمَّا مَنْ اسْتَعْنَى... الآية) [عبس: ٥].

ولا معنى ولتستوي عندك الكبائر والصغائر، فالمعطي واحد إذا كنت ناظرًا إليه، ولا معنى للمعصية إلا حب غيره قال ﷺ: «**حب الدنيا رأس كل خطيئة**»، وقال: «**أعدى عدو لك نفسك التي بين جنبيك**»، فأنت لو سألت كل متفقه عن القصد بالحدود والتعذيرات؛ لم يختلف جوابهم أنه في حقوق الله، تطهير من المعاصي، وردع عن مثل في المستقبل، وفي حقوق الخلق ردع في المستقبل، ونقل غيظ المظلوم إلى الظالم، كما قال - سبحانه وتعالى - **(وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ \* وَيَذْهَبُ غَيظَ قُلُوبِهِمْ)** [التوبة: ١٠٤، ١٠٥]، فإن الحد هو المنع، والقلوب هي الكتب التي سطر فيها الحسنات والسيئات، فمن قضى غرضًا من أحد بغير وجهه؛ فقد أعطى نفسه هواها، فهي سيئة أظلم بها قلبه بغفلته عن الله وأخذها لها بغير أمر الله، فرقمت في قلبه سواد، أو حسنة للمظلوم رقمت في قلبه فيبيضته، كما سودت قلب الظالم، فإن الله عند المنكسرة قلوبهم، والمؤمن يؤجر في الشوكة، والله مع المظلوم.

وكذلك من أتبع نفسه هواها في تعدي حدود الله - سبحانه - وقضاء الشهوات؛ رقمت تلك السيئات في قلبه بالإعراض عن الله، وصارت له عادة؛ فإذا عوقبت هذه النفوس بما يغير غيظ المظلوم ويكسبه نشاطًا ويغيظ الظالم المتعدي، فذلك حد الله بمثل ما اعتدى به الظالم، وهو عين محو السيئة من المتعدي حدًا لله، وحمل الظالم من سيئات المظلوم وإعطائه من حسناته، فأمر الحساب موجود الآن ولكن لا يفهمه إلا القليل، ويظهر في الدار الآخرة للجميع، وهذه القلوب هي الوجوه المبيضة والمسودة هنا بالإيمان والكفر، وكذلك يظهر في تلك الدار لأنها تكون، ثم هي الظاهرة بصور أعمالها وذلك عين بياضها وسوادها، فإنها باطنة في هذه الدار وهي الظاهرة في الآخرة، فالبلاء أبدًا لا يكون إلا على الظواهر، فالأجسام هنا هي الظاهرة فهي تبلى هنا، والسرائر هي الظاهرة، ثم وثم تبلى السرائر؛ لأنها ثم هي الظواهر، فيبدوا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، ويبدا لهم ما كانوا يكتُمون، وقد نبهت النبوة على ذلك بتحويل الناس بالصور في سوق الجنة من غير نزع ولا خلع، والباطن على حاله كما تتحول الباطن بالصور، والظاهر على حاله فمن فهم ما قلناه رأى القيمة قائمة الآن، والقصاص قائمًا.

فعلاج الأبدان ميزان علاج القلوب، فكما أن طبيب الأبدان إذا رآها معتدلة عمل على حفظ اعتدالها، وإذا رآها مريضة عالج الحرارة بالبرودة وبالعكس، وإن كان المرض من امتزاج داواه بامتزاج وطبيب النفوس، إذا رآها وقفًا على الحق - سبحانه وتعالى - عمل على حفظ ذلك والزيادة فيه، وإذا رآها مائلة إلى شيء عالجها بضده، فمن يغلب عليه حب الرئاسة يؤمر بالكدية في الأسواق، ومن كان يحب أن يرى نفسه بعين الاستغناء والنظافة والترفة؛ يؤمر بسياسة الدواب، وكسح الكنف، وغسل الخسائس، وإزاحة أقدارها في الملاء الذين يعرفونه ويعظمونه، ومن أنست نفسه بشهرة وصيت وجاه، ومالت إليه النفوس، ومالت نفسه إلى ذلك؛ أمر بالتزي بزي من يستنكر حاله، وربما بلغ به حلق اللحية، ومن كمال فطنة صاحب هذا الوصف إخفاء سبب ذلك، كفعل الشبلي - رحمه الله تعالى - عند موت ابنه حلق لحيته في مقام الغيرة ليتوهم فيه من يتوهم، فهذا أمر ينكره، وأمثاله من ليس له هذا الذوق، وافقهم في إنكار ذلك أبو الفرج الجوزي مع أنه روى عنه أنه سئل عن ذلك فقال: حلقت أمه رأسها على مفقود أفلا أحلق لحيتي على موجود، وإنما يخفى ذلك؛ لأنه إذا فطن له أن قصده في ذلك صالح كانت له عظمة في النفوس تقابل ما ارتكبه من المشقة، وإن كان ذلك عند البعض دون البعض، فهذا أمر تشهد به السنن قالت عائشة - رضى الله عنها - «صلى عليه الصلاة والسلام، وعليه خميصة ذات أعلام، فلما فرغ قال: ألهتي أعلام هذه، اذهبوا بها إلى أبي جهنم واتوني بالبجانية»

ونظر بعض الصحابة أو التابعين إلى طائر من شباك في داره وهو في الصلاة حتى بلغ بستانًا له، فلما فرغ من صلاته تصدق بالبستان كفارة لنظره.

وركب عمر رضي الله عنه فرسًا مهملاً فأعجب بخطرته، فنزل وجر ذيله، والنهي عن جر أذيال الخيلاء معلوم من سنة الرسل، فقل للذي ينكر على الشبلي في حلق اللحية: ما حكم من باشر فيما دون الفرج؟ ومن سرق دون النصاب؟ ومن سب العلماء والفضلاء بما لا حد فيه شرعًا، يقول لك: حكمه التعزير، وأسأله عن التعزير فيقول: ما رآه الحاكم بحسب حال المعزّر والمعزّر عليه، فينهر واحدًا ويحبس آخر، ويضرب ثالثًا ويسير رابعًا في ملأ يعرفونه بغير عمامة ولا نعل، ويحلق لحية خامس ويشهره

في البلد، فتراه قد اعترف بعين ما أنكره، وأنت لا تشك من أنست نفسه بغير الله إن كان صادقاً أحق بذلك، فإن العقل حاكم بين الله وبين النفس فيكون الله أضعف الخصمين - معاذ الله - فهكذا كانت مقاصد القوم.

وأما ما تراه اليوم من حال قوم اتخذوا حلق اللحى حرفة، ولبس الجديد المرقع، وإقامة الزي رياءً يمتازوا به، حتى إن قومًا يرقعون الثياب الجديدة النفيسة، وتهيؤوا السجادة والعكاز، والمشاعل والسبح دائماً؛ لإقامة الزي وإنما كان ترقيع القوم عن حاجة أو على قصد إهانة النفوس، وقوم اتخذوا الكدية حرفة، وإنما كان سؤال القوم إهانة لنفوسهم وخزيًا لها، وقوم اتخذوا حلق الرأس ولبس المسود دأبًا، فصارت هذه الأمور لهم حرفة وزنانير يعرفون بها، فلو ترك من يحلق لحيته حلق لحيته لم يقدر عليه، ولو لبس من يلبس المرقع والمسود لباس العلماء، أو عوام الناس، وتعمم من تعود حلق لحيته، وحلق رأسه لأظلمت نفسه، وشق عليه ذلك حتى يعود إلى ما قد تعود، فيقول: وجدت بركة الفقراء، وإنما وجدت خسارة نفسه وأنسها بوثنها الذي تعبده من دون الله، فهي لا تقدر على فراقه لما لها فيه من الرياء والسمعة عند من يستحسنه، وهي تعلم أن قاريء القرآن على سبيل المراءات آثم، وكذلك من يقوم ويصوم، وكذلك قوم لا يتركون عليهم شيئاً من اللباس ولا يدخرون المال، وإذا وجد الواحد شهوة بطنه باع ثوبه بها من ساعته، وظن أنه في تجريد وإنما يحمله على ذلك أكل الحشيش والتلذذ بأن يقال: لا يثبت على شيء معلوم، ولقد نرى من يسهل عليه احتمال هذه المشاق كلها من حلق وغسل، حش وكد وابتذال، وطي أيام متواصلة وسهر، وإنفاق لينظر إليه بعين الفتوة والسماحة، ولتحصيل التصدي والرياسة.

وبالجملة فلا ناصر على النفوس إلا الله تعالى، والأمر كما قال - سبحانه وتعالى - (بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ \* وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) [القيامة: ١٤، ١٥]، ومع ذلك فقد يكون في طي كل صنف من هؤلاء؛ من يتظاهر به معهم وهو صادق يتستر بهم عن أعين الناظرين ومقصد صحيح، والخلل في فهم من يراه، وليس للسالك إلا نهى نفسه وردعها لما يرد عليه، فإله - سبحانه وتعالى - لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم؛ وإنما ينظر إلى قلوبكم، والأعمال بالنيات، ولا يطلع عليها إلا الله - سبحانه وتعالى - فعلى

كل حال الواجب إتباع العلم، فإن ذلك أصعب على النفوس من كل مشقة، وقد وسع الله في الشريعة حسب ما يحتاج إليه السالك، فمن وفقه الله للسلوك بالوجه الشرعي وحسن الظن بالخلق؛ فهو الموفق المراد، فإننا إنما نتكلم على الصفات ليحذر من يجد في نفسه صفة ما، ولا نحكم بأن من كان هكذا فهو هكذا وعلى الله قصد السبيل، فإن فهمت ما ذكرته لك فهمت أن التصوف هو إتباع الشريعة المطهرة، فإن أخلاق الصوفية مأخوذة من نور النبوة.

والطريقة الثانية: هي طريقة استهلاك نجاسة أخلاق النفوس، وسيرها بأن تجعل الحق شاهد قلبك، وتدوم على الذكر الذاتي لفظاً ومعنى؛ بطرد العوارض في العزلة المعروفة بخلوة الصوفية، وتداوم تلاوة القرآن من حيث هو كلام الله لا من حيث التفكير بمدلولاته من الأكوان، كالجنة والنار، والثواب والعقاب والحساب، وغير ذلك، فإن النظر في الكون وسواس، حتى إن بعض السلف قال: إنه ليعتريني الوسواس في صلاتي، قيل له: كيف؟ قال: أكون في الصلاة فأذكر مقامي بين يدي ربي، فهذه الطريقة أقل كلفة من الأولى، بيد أنها إن كانت قبل الأولى، فليحذر سالكها بغير شيخ من مكر إن أصابه، وإن كانت بعد الأولى فذلك شأن الكمل، والمتحقق بها فحل وقته، فهو وجه كله.

وللمتحقق بهذه مفردة وجه إلى الحضرة وفقاً إلى العالم، قد غيبه الله عن قفاه، فلو سئل لأخبر أنه وجه بغير قفا، وهو سمير الروحانيات يعبر عن هذا الصنف بإنات العارفين ما لم يلتحق بالكمل، ومن ثم نطق لسان الأعداء على الملائكة الذين هم عباد الرحمن بقوله: (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِثَاءً... الآية) [الزخرف: ١٩]، ولو حرك على هذا قفاه لعلم به، ويستبين لك رجحان الأولى على الثانية؛ لعموم الدعاء وعموم الإستجابة من كل الوجوه التي تقتضيها حقائق الأسماء والصفات، بخلاف الثانية فإن الإستجابة فيها بالأسرار أغلب، فهي أسهل من الأولى، وذلك أن سر العزة سارٍ في الأسرار فهي إذا دعييت من حضرة الأمر نفرت.

كذلك أسرار المحبين فإنها تجيب عند كل نداء قال - سبحانه وتعالى - (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ... الآية) [آل عمران: ٣١]، فالمحب إذا قيل له: حي على الصلاة، يقول: دعيت إلى ما فيه قرّة عيني، وغيره يقول: جاء التكليف، والدعاء ليس من باب الحب لكن من باب الجود، لأن الأسماء هي التي تحب لا الذات، فتجود الذات على الأسماء بالدعاء لتظهر حقائقها، والاستجابة من باب الحب، فالمحب يجيب متى دُعي، ومن أي حضرة دُعي، فتجيب له المحبة بالمحبة، والمغفرة التي هي ستر ذنبه، وإذا دُعي الأسرار من حضرة اللطف من غير أمر أقبلت فقيرة معترفة بالعجز، فمن ثم غلط كثيرون، فتوهموا أن الحق ما دعا منهم إلا لطائفهم، فاشتغلوا بتقديسها بأنواع المعارف والفكر، ولم يحفلوا بظواهرهم فاشتغلوا بتحصيل حاصل، ولم يعلموا أن الأسرار مقدسة، وأن العلم من أعظم الحجب عن إدراك الحق إذ هو يطلب رؤية المعلوم على حد علمه، وما كل معلوم يتصور هذا الطلب عليه ولا يمكن رؤيته، فليس العلم يجلب السعادة؛ وإنما هو يطرد الجهل، علمت اليهود والهرافلة بنبوة الرسل وما آمنوا (وَجَدُّوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ... الآية) [النمل: ١٤].

وعلم إبليس وجوب امتثال أمر الله وحرمة التوفيق، فلم ينفعهم العلم دون الإيمان والعمل، فالعلم ليل لا صبح له، ما وقفت معه لأنه يشغل منك ما ينبغي أن تفرغه للرؤيا، فإذا خلصوا العلم من الدعوى، وأصبحوه الإيمان والاعتراف بالعجز والافتقار؛ فهو نور على نور، فيحصلون على الإيمان بالحق في كل مقام رأوه، كما جاء في الحديث الصحيح، ألا ترى النفوس يغلب عليها اتباع الشهوات لما فيها من لطيف العلم الذوقي لها، واللطف الكوني حتى صارت في حكم الظواهر واستولت عليها؛ لأنها أحرص شيء على العلم، واللطف كما سبقت الإشارة إليه في غير موضع من هذه الرسالة، وذلك هو نجاستها التي عرضت لها، فمتى التحقت الظواهر بالأسرار؛ فذلك هو المحبة، ومتى استولت عليها فذلك هو القربة، والحق يقول: «لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل...» الحديث.

فيا من شغلته شهواته فضاعت بها أوقاته، وعظمت جرائمه وتبعاته، استعن على حل هذا الطلسم الأعظم نحوره وقربانه، في إرصاده وأوانه، وتفرغه عن

الظواهر، وتقريبه من الطلاسم المجذوبة المحبوبة في أرصادها وآوانها، وعند ثوران دخانها لتجذبك إلى أوطانها، بما تستنشقه من روائح طيبها، وتلطف لحجابها بتعفير خدك بترابها، وارتباطك في عُتبانها أبوابها، فقد نادى مناد التنزيل، على سيد المرسلين بالصبر مع هذا الجيل، نُقل إلينا أنه قيل لرسول الله ﷺ ألا تصلي على فلان فقد مات؟ فقال: «لا أصلي على من لم يصل». فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله أنا رأيته يصلي ركعتي العيد. فقال رسول الله ﷺ: لا أصلي على من لم يصل إلا نافلة، فجاءه أمين الحضرة جبريل وقال: يا محمد ربك يقول لك: أليس أنه راوه ببابنا مرة، فإذا رددته من بابي فبباب من يقف؟ إني قد غفرت له، وصلت عليه ملائكتي إن الله لغني عن العالمين». ومن لطائف الحكايات ما بلغنا أن المجنون رُوي على كتفه كلب يحمل، ويطعمه ويسقيه ويقبله، فقليل له في ذلك فقال: رأيته يحرس باب ليلي، ثم أنشد في ذلك:

رأى المجنون في الفلوات كلباً فلاموه على ما كان منه فقلت: ذروا ملاكم فعيني	فضم إليه بالإحسان ذيلاً وقالوا: لم منحت الكلب نميلاً رأته مرة في باب ليلاً
---	--

فالقوم هم الشفعاء عند بدو الحاجات، والعون عند الفاقات، بقوة مغناطيسية في نفوسهم من أثر الرياضات، فنعم العون ونعم الناصر، التقرب منهم عند فراغ خاطر، ومن هذا ما أشار إليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث قال: (أحضروا لمن احتضر ذا النعمات الطيبة يتلو عليه القرآن)، أراد بذلك أن يهون عليه سكرات الموت، كما يهون على المطايا حمل الأثقال وقطع الفلوات، بطيب نغمات الحداد، فإنه بذلك يشتغل عن الأهل والمال والولد، وسائر المألوفات، فربما التحق بالذين تتوفاهم الملائكة طيبين.

فقد استبان لك أن المقصود من العبادة صفاء البواطن والظواهر؛ لكمال الخلافة وتمام ظهور سلطان الأسماء، وأن الشريعة المطهرة هي عين الحقيقة، فإنها جسم



وروح، فجسمها: علم الأحكام الذي الدعاء الذي هو العبادة، وروحها: الحقيقة التي هي الاستجابة الإلهية، فالشريعة وضع موضوع من الحق في عباده، فمنه مسموع وغير مسموع، فالمسموع المعمول عليه، والسامع العامل التابع، قال - سبحانه وتعالى - (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) [الأنفال: ٢١]، وقال: (كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بَعْضُكُمْ عَمِّي فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ) [البقرة: ١٧١]، فما ثم إلا شرع، فعليك باتباع ما تعين عليك من علم الأحكام لا غير، فإذا حصلت منه فاطلب الحقيقة، فإن علم الأحكام هو التكليف وحدة معك هذه الدار وفيه تتركه، وعلم الحقيقة تحمله معك، ولا تشتغل عما يلزمك من علم الأحكام بعلم الحقيقة تحرم الكمال، وعلم ما يحتاج إليه من ذلك مستوفى في كتب الشرع، فيطلب من هناك إن لم أشر إلى جملة إن شاء الله، وعلى الله قصد السبيل.

## فصل

وإذا فهمت هذه الفصول فلتفهم آداب الدعاء مجملاً ومفصلاً، وسأشير إلى ذلك: فأما آدابه على سبيل الإجمال: فالإتصاف بأوصاف السائلين من امتثال الأوامر واجتناب المناهي.

وأما على سبيل التفصيل فنقول: آداب الدعاء من حيث هو العبادة المطلقة كثيرة تلتبس من كتب الشرع، ومن حيث هو صنف منها أعني: اللفظ المسؤول بها الحاجات، كثيرة أيضاً منها: العبادة على وجهها بجميع آدابها، لقوله - سبحانه وتعالى - (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ... الآية) [آل عمران: ٣١]. فجعل محبته نتيجة اتباعه ﷺ، وقال - سبحانه وتعالى - (فَإِنِّي قَرِيبٌ أَجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) [البقرة: ١٨٦]، وقوله تعالى: (أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ) [البقرة: ٤٠]، وقوله: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) [البقرة: ١٥٢]، وقوله تعالى: (وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً... الآية) [الأعراف: ٢٠٥].

وأوحى الله إلى موسى - صلوات الله وسلامه عليه - وعلى نبينا محمد، وعلى كافة النبيين والمرسلين أجمعين: «يا موسى إذا ذكرتني فاذكرني وأنت تنتفض

أعضاؤك، وكن عند ذكري خاشعاً مطمئناً، وإذا دعوتني فأجعل لسانك من وراء قلبك، وذم نفسك فهي أولى بالذم، وناجني حين تناجيني بقلب وجل ولسان صادق»، وقال عليه الصلاة والسلام لابن عباس - رضي الله عنهما - «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة» وأعظم معين على الاستقامة على العبادة واستجابة الدعاء؛ أكل الحلال، فإن النبي ﷺ يقول: «كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به»، ويقول: «من أكل لقمتين من الحرام حجت دعوته أربعين صباحاً»، ويقول: «من جعل الحلال له قوتاً أجيب دعوته، وعظمت مروءته، وحسنت سيرته، وعلت كلمته، وحصلت أمنيته، وطابت طينته، وظهرت ذريته، وتنورت نطفته، ورقت دمعته، وظهرت حكمته، وقل غضبه، وخف ذنبه».

وقال سعد رضي الله عنه: قيل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله علمني دعاءً مستجاباً؟ فقال: «يا أبا عبد الرحمن أطب طعمتك تجب دعوتك».

وبلغنا أن موسى عليه الصلاة والسلام خرج إلى قضاء حاجته، فرأى رجلاً رافعاً يديه إلى ربه، فقضى موسى حاجته، ثم رجع فوجده على حاله، فناجى ربه في ذلك، فقال: «يا موسى لو رفع بصره إلى السماء، وبكى حتى تزهق روحه ما استجبت له، قال: ولم يا رب؟ قال: لأن في بطنه الحرام، وعلى ظهره الحرام، وفي بيته الحرام».

وقد نبهتك على أن من كان دعاؤه بغفلة من ذات الشمال غالب؛ فقد قرب به منها، فحجبه عن عين ذات اليمين ما لم يدم عليه، ويقدم على آدابه التي سبقت الإشارة إليها من حيث اللفظ، وما يقتزن به مجملاً، فأن يدعو الداعي حاضراً موقناً بالإجابة خاشعاً؛ بلفظ يناسب حاجته في وقت يناسب اللفظ والحاجة، ويدوم على ذلك معتمداً على ما يليق به ويمكن لمثله، فإن فعل ذلك لم يحرم الإجابة بمطلوبه عاجلاً إن شاء الله تعالى، وإن أخل بشيء من ذلك أجيب بإحدى ثلاث.

فأما قولنا حاضراً موقناً بالإجابة فلما رواه معاذ بن جبل رضي الله عنه: قال: كان رسول الله ﷺ يدعو بالدعاء الحسن الكثير الجميل، الذي لا يستطيع أحد أن يقول بمثله، فقلت له

يومًا: يا رسول الله لو علمتني بعض ما تدعو به؟ فقال رسول الله ﷺ: «لو أعلم لك فيه خيرًا لعلمتك. قلت: سبحان الله يا رسول الله لم لا تعلم لي فيه خير؟! قال: إن أفضل الدعاء ما خرج من القلب بجد واجتهاد، فذلك الذي يُسمع ويُستجاب وإن قل»، ولقوله عليه الصلاة والسلام «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه» ولقوله عليه الصلاة والسلام «إذا دعا أحدكم فلا يقل: «اللهم اغفر لي إن شئت، ولكن ليعزم المسألة، فإنه لا مكره له» ولقوله - سبحانه وتعالى - «أنا عند ظن عبدي بي ... الحديث».

وأما قولنا: (خاشعًا) فلأحاديث المتقدمة في المناجاة الموسوية وأما قولنا: (بلفظ يناسب حاجته) فاعلم أن الله تعالى بالنسبة إلى كل موجود من الأكوان، وما سيوجد مطلقًا اسمًا يخص ذلك الكون هو مفتاحه الخاص، المشار إليه في قوله - سبحانه وتعالى - (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ... الآية) [الأنعام: ٥٩]، ولذلك الاسم ظهور في الأكوان كلها؛ سواء كان ذلك الكون ذاتًا أو معنى في ذات، وذلك الاسم هو الاسم الأعظم في حقه، والمسمى الأعظم من قبله، ثم إنه لما كان أكمل مظاهر الأسماء النوع الإنساني، كان ظهور الأسماء فيهم أكمل، وأما أرسل الرسل إلا بلغات قومهم، ثم تفاضلت اللغات لتفاضل الناس، فتفاضلت الأسماء فتفاضلت الكتب؛ لأن سر الله تعالى في كل شيء أسمائه كما سلفت الإشارة إليه مرارًا في كل كتاب منزل.

ثم لما فضل هذه الرسول محمد ﷺ سائر الرسل، وفضلت لغته اللغات، وكتابه الكتب، ونسخت شريعته الشرائع، علمنا أن الأسماء العربية أعظم الأسماء، ولكن ستر هذا الأمر أهله؛ إذ هو بلسان الملة لئلا يصل إليه كل طالب، ويكثر تداوله، وإذا فهمت ما أشرت لك إليه والله سبحانه يحجبه عن غير أهله بمنه وقد فعل ذلك وهو يفعل.

فاعلم أن كل اسم له حروف وعدد، ووقت واختصاص، ونظم وتكسير وتركيب، بمن وفق له، فهو المطلع على الاسم الأعظم بالنسبة إلى الكون والأكوان المختصة به، يقتضي ذلك أسماء سماوية، وعلوم علوية ملكية، بأسباب قدرية، على سرعة مخصوصة بذلك، على ذلك ما روي عن النبي ﷺ في أحاد مخصوصين، سمعهم

يدعون بدعوات مخصوصة، في أوقات مخصوصة، بألفاظ مخصوصة، مختلفة التركيب في اللفظ والمعنى والمطلب، فأقسم صلى الله عليه وسلم ﷺ في كل واحد منهم أنه دعى الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى.

وما رُوي عن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ دخل عليها، فقال: «يا عائشة إني علمت اليوم الاسم الأعظم، الذي علمه صاحب سليمان عليه السلام ﷺ قالت: ففقت إليه فاعتنقته، فقلت: يا رسول الله علمنيه؟ فقال: لعلك ألا يكون لك فيه خيراً فلم يعلمها».

فاسم الله ﷻ المشار إليه هو الذي يختص بمعاني جميع الأسماء، ويبيدي نورها ويصدر ملكها وملكوتها، فالداعي به ينظر الاسم الذي يخص حاجته في وقته من أسماء الله الحسنى، فيقصد به اسم الله الأعظم، ثم ينظر الاسم من حاجته، وهذا ما أشار إليه صاحب سليمان فيما بلغنا عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن سليمان عليه السلام ﷺ قال لصاحبكم: «كيف تأتي به؟ قال: أقلب طرفي فأنظر في كتاب الله، ثم أراجع همتي، ثم أنظر في كتاب ربي فأتيك به، فترك قائم السيف في يده، فرفعها ورفع طرفه، فإذا العرش قد نبع من تحت الأرض».

فصح ذلك ما ذكرته لك، وما جاء من اختلاف الأخبار في تفسير اسم الله الأعظم الذي دعا به صاحب سليمان، فقال: أبو الدرداء رضي الله عنه هو رب، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - هو الله فاختلافهما؛ لأن هذا الاسم يجمع الأسماء كلها، فأني اسم توجهت به فإياه أردت، كما قال - سبحانه وتعالى - (أَيُّ مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) [الإسراء: ١١٠]، وإنما تختلف السرعة والإبطاء، وتختلف الإجابة بحسب اختلاف التركيب وكثرة الجهات وقلتها، إن فهمت؛ فإن من الأسماء المؤدية معنى هذا الاسم ما يكفي فيها الذكر والعلم.

ومنها ما لا بد فيه من العلم مع العمل، والذكر على حسب مفهوم الاسم، فالله - سبحانه وتعالى - لم يحجب أسمائه عن خلقه، وإنما حجب علم ما أشرنا إليه فافهمه، وما علمنا أحداً من أهل الله سبحانه إلى بلوغ هذا الحد في كتاب، ولقد تجاسرت على

أمر عظيم ثقة بأن الله تعالى يمنعه عن غير أهله، وتقريباً للمستعدين له، وجاء ثواب الله سبحانه وتعالى.

وأما قولنا: (في وقت يناسب اللفظ والحاجة) فلقوله ﷺ «أقرب ما يكون العبد من الرب في جوف الليل الآخر»، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن واسأل أى: الدعاء اسمع فقال: جوف الليل الآخر ودبر المكتوبات وقال - عليه الصلاة والسلام - : «إن لربكم في ساعات دهركم نفحات، فتعرضوا لها كل من أصابه من تلك النفحات لا يشقى أبداً» اللهم انفحننا بنفحة.

وكما جاء في ليلة القدر، والساعة في يوم الجمعة أن الدعاء فيهما مستجاب غير مردود، وهذا الوقت قد يكون من قبل نفس الزمان، كما أشرنا إليه، وقد يكون من قبل كون آخر غيره، ونقترن به من فعل أو غيره، كما جاء عنه ﷺ «إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله فإنه يرى ملكاً، وإذا سمعتم نهيق الحمار»، وروى جابر «ونباح الكلب فتعوذوا بالله من الشيطان الرجيم فإنه يرى شيطاناً» وكما جاء من استجابة الدعاء عند رؤية البيت، وتحت الميزاب، وفي الأماكن المعينة في مكة وغيرها، وفي مواقيت الحج، وعند الاستيقاظ من النوم لقوله ﷺ: «ما من عبد مسلم يستيقظ من نومه ذاكرًا الله بالصحة، يسأله شيئاً من أمر دينا أو دنيا أو آخرة، موقناً بالإجابة؛ إلا أجاب الله دعوته»، وكما جاء عنه - ﷺ: «إن الله اختار لنفسه من ساعات كل يوم وليلة أوقات صلاة الفرض، فاغتنم الدعاء فيها، فما من عبد مسلم يصلي فريضة؛ إلا كان له عند فراغه منها دعوة مجابة»، وكذلك ما شهد به التنزيل العزيز من قوله - سبحانه وتعالى - (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ) [النمل: ٦٢].

وأما مناسبة الألفاظ، فكان عليه الصلاة والسلام يحمد السراء ببسم الله، وأما مناسبة الحاجة فكمين يريد الثروة يلتبسها بدعاء والديه، لقوله ﷺ: «دعاء الوالد للولد نماء وغناء» والدعاء عليه فقر وعناء، وبالاستغفار أيضاً يلتبس المال والرزق والولد، لقوله ﷺ: «من استبطأ الرزق فليستغفر الله»، قال سبحانه وتعالى: (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً) [نوح: ١٠].

وأما قولنا: (ويدوم على الدعاء بذلك) ألا يستبطيء الإجابة لقوله ﷺ: «يستجاب للعبد ما لم يستعجل، فيقول: دعوت ولم يستجب لي»، ولقوله ﷺ: «إن الله لا يمل حتى تملوا»، وفي الآثار أن الله سبحانه وتعالى يقول في بعض الداعين: «يا جبريل إني قد قضيت حاجته وأجبت دعوته، ولكني أحبسها فإني أحب صوته».

قال وهب بن منبه: نجد فيما أنزل الله تعالى في بعض الكتب، أن الله سبحانه يقول: «إني أنزل البلاء لاستخراج الدعاء».

وقال سعيد بن عبد العزيز: قال داود: «سبحان مستخرج الدعاء بالبلاء، سبحان مستخرج الشكر بالرخاء»، وجاء أن العبد إذا كان مداوماً للدعاء في الرخاء، قالت الملائكة: صوت معروف اللهم أنجح طلبته، وإذا كان لا يدعو في الرخاء ويدعو في الشدة، قالت الملائكة: صوت منكر من عبد منكر، وفي التنزيل العزيز (مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرٍّْ مَّسَّةٍ) [يونس: ١٢].

وفي الحديث: «أحب الأعمال إلى الله أدومها»، قال - سبحانه وتعالى - لموسى وأخيه (قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا) [يونس: ٨٩]، قال مجاهد: بعد أربعين سنة، وكذلك يعقوب ﷺ أجيب بعد أربعين سنة في رد يوسف، وقال لنبيه: (وَلَا تَيَاسُؤَا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ... الآية) [يوسف: ٨٧]، وزكريا أجيب دعوته بعد ستين سنة، وهو قائم يصلي في المحراب، وأيوب بعد سبع سنين وشهور، ويونس بعد ثمانية وعشرين يوماً، وقنت ﷺ على المشركين مدة فأجيب دعوته بعد سنين، فإن الإجابة وقف على المشيئة قال - سبحانه وتعالى - (بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ) [الأنعام: ٤١]، وسر ذلك ما نبهت عليه من أحوال العبد وأفعاله، دعاء من كلا اليمينين وتعرف، وحكمة التعرف ما سلف ذكره، والله لا يمل حتى تملوا، فترك الدعاء دعاء بما أقبل عليه.

وأما قولنا: (معتمداً ما يليق به ويمكن لمثله) فلما أخبر رسول الله ﷺ عن ربه من قوله: «وإن من عبادي المؤمنين لمن يسألني الباب من العبادة، لو أعطيته إياه لداخله العجب فأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته

لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلحه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلحه إلا السقم ولو أصححته لأفسده، وإنني أدبر عبادي بعلمي بقلوبهم إني عليم خبير».

قال أنس رضي الله عنه: اللهم إني من عبادك الذين لا يصلحهم إلا الغنى فلا تفقرني، ومن ذلك تمنى الباب من المعرفة، ألا ترى النبي صلى الله عليه وسلم منع عائشة أم المؤمنين وقال لها ما قال ينظر إلى ذلك من الكتاب العزيز قوله - سبحانه وتعالى - (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) [الإسراء: ١١]، لهذا قال بعض السلف: لا تتمنوا رتب الأكابر، فإنكم لا تقدرون على مثل أعمالهم فتبتلون - يعني - بالبلاء ما يكون طريقاً إلى حصول المطلوب، ولعلمهم لا يطيقون ذلك كما لا يحتمل الجمل الولوج في سم الخياط، فإننا قد أسلفنا ما معناه: أن العالم مترابط ببعضه لبعض، جاذب جذب المغناطيس للحديد، وجذب الحديد المجذوب لغير المجذوب بسبب ترابط أسماء الله عز وجل وتداخلها، وكون بعضها لبعض في قضية الحس وكون شأنها دورياً، فظهور بعضها يطلب بطون بعض، وبطون بعضها يطلب ظهور بعض.

فلذلك ينبغي أن يكون الداعي عالماً بالحقائق قبل الداعي ليعرف على أي باب يُنزل حاجته، ومن أي معراج يصعد دعاؤه، لمعرفة بحقائق الأسماء، فيسلم من أن يطلب حصول شيء حصوله متوقف على زوال شيء، وزواله يضر بالداعي، إذ ظهور الاسم الظاهر بالمدعو به يقتضي بطون ما ببطونه بطون الاسم الذي هو ضده، وكذلك بطون الاسم المدعو به يقتضي ظهور ما بظهوره بطونه، فربما هرب الواحد من ضرر يصير إلى ضرر كثير، يستبين عنده أن ذلك الضرر كان نافعاً ينظر ذلك قوله تعالى (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ... الآية) [الإسراء: ١١]، وذلك كمن يسأل أنواع المستحيلات من الرسالة في هذا الزمان مثلاً وغيرها كمن يسأل الربوبية مثلاً، أو يسأل ما لا ينبغي له من المراتب الإنسانية، فإن الدعاء يقتضي استجابته مهما توجه على وجهه الذي ذكرناه، بحسب استعداده، وذلك غاية المضرة فمن سأل الربوبية مثلاً ظهرت عليه صفات الربوبية، وذلك هو الكفر، ومن سأل الرسالة مثلاً في هذا الوقت ونحوها من المستحيلات؛ ظهر عليه في استجابته من الضرر ما لا قبل له به.

وأما قولنا: (فإن فعل ذلك لم يحرم الإجابة لمطلوبه عاجلاً إن شاء الله تعالى، وإن أخل بشيء من ذلك لم يحرم الإجابة المطلوبة بإحدى ثلاث)، فلقوله ﷺ: «إذا سألتكم الله ﷻ شيئاً فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، ولا تيأسوا من رحمة الله، فما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم؛ إلا أعطاه الله إحدى ثلاث: إما أن يعجل إجابته، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها، وإما أن يدخرها له في الآخرة، قالوا يا رسول الله: إذا نكث، قال الله جل ذكره أكبر وأعز فاسألوا الله، كما أمركم إذ يقول في كتابه: (وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ) [النساء: ٣٢]»، وسر هذه الآية أن الإجابة بحسب استعداد الداعي وقبوله، وذلك يقتضي إحدى الثلاث المذكورة؛ لأن الله سبحانه يعطي على أيدي أسمائه والله أعلم، فهذا ما قدر الله ذكرته لك هاهنا من شأن الدعاء.

وأما تعيين الألفاظ للمطالب، وذكر كيفية التركيب لها، والنص على كيفية علم المناسبة بين الأسماء، والداعين والرغائب، والأمكنة والأزمنة والأفعال، فباق خلف حجاب الصون، وتحت رداء الستر إلى أن يتعين زعيم، ويخطب كفوء كريم، فذلك طور وراء طور العقل، منزّه عن الدخول تحت أسر النقل، وربما يقدر الله القسم الآخر ذكر شيء من ذلك، أو إشارة إليه فإن كان وإلا فاقنع بما قُدر لك على أن فيه كفاية كافية شافية، وكيف لا يكون ذلك وقد سبق أن الإنسان الكامل هو كل العالم، وثمره العالم، ولأجله وُجد، وإنما يفهم ذلك من تهبأ للسعة المشار إليها بقوله «وسعني قلب عبدي المؤمن» التي هي تمام المقابلة بالتجلى، وقد نبه ﷺ بقوله: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم» لأن صورنا من جملة الكون موجودة فيه؛ ما لم يتسع الباطن بالسعة التي هي الأمانة المعروضة على السموات والأرض والجبال، وهي خلافة الله في الأرض التي خص بها آدم ﷺ واصطفاه وذريته، ونوحاً، وآل إبراهيم، وآل عمران على العالمين، وهي البرزخية الجامعة بين الوجوب والأماكن الرابطة للمناسبة بين العوالم في اتصال مدد بعضها إلى بعض، علواً وسفلاً، وله الأولوية من كونه عين العالم، والأخرية من اجتماع أحكام العالم وآثاره فيه، وانتهائها منه عوداً وبدءاً، كما جاءت منه أولاً للأمر الدوري الذي بين الوجوب والأماكن كما أعلمتك



أولاً، من حيث الكون المتقدم على الصورة الأدمية، والخلافة بعد وجودها الذي منه صح على الحق والخلق؛ إطلاق الخلافة التي هي تناوب الصفات والأحكام، والآثار والأسماء والأفعال، والتجلي الذي جاءت به الشرائع، فإن الخليفة إن لم يظهر بصورة المستخلف على التمام؛ لم يصح عليه إطلاق اسم الخليفة مطلقاً، إلا من الوجه الذي خلفه فيه لا غير، ولذلك نص الله على خلافته داوود بأوضح مما نص من خلافة آدم، ولذلك جاء في الحديث أنه «خلق آدم على صورته»، وفي حديث «على صورة الرحمن»، فاستقر إطلاق اسم الخليفة على الحق وعلى الخلق؛ بل وإطلاق صفات الحق على الخلق والخلق على الحق، تجده كثير الأجل ما أخبرتك من ذلك قوله سبحانه (وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ) [النمل: ٦٢]، (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) [البقرة: ٣٠]، (وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) [الحديد: ٧]، وجعلكم ملوكاً (وَأَوْفَرْتَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ) [الأحزاب: ٢٧]، (لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً) [البقرة: ١٤٣]، (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) [آل عمران: ١٥٩].

فهذه كلها أطلقت على الحق، فهو الملك، الوارث، الشهيد، الوكيل، قال رسول الله ﷺ: «اللهم أنت صاحب في السفر والخليفة في الأهل»، وأخبره جبريل عليه السلام أن الله خليفته على أمته، وانبسط ذلك إلى «مرضت فلم تعدني، وعطشت فلم تسقني، وجعت فلم تطعمني، واستعطيتك فلم تعطني»، وإلى الاستقراض في الكتاب العزيز بقوله: (وَأَقْرَضُوا اللَّهَ...الآية) [الحديد: ١٨]، وفسرها كلها بك في صورة أخيك كمرض أخوك، وكذلك أخذ الصدقات ووقعها بيده قبل يد السائل، وإتيانه ونزوله، ومجيئه وصحبته ومعيته، وقوله وسمعه وبصره، ويده وقدمه ورجله، وجنبه وأصبعه وعينه، وصورته وصلاته (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...الآية) [الأحزاب: ٥٦]، (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ...الآية) [الأحزاب: ٤٣]، قال ﷺ لجبريل عليه السلام «أصلي ربك؟ قال: نعم، قال ما صلاته؟ قال: سبوح قدوس سبقت رحمتي غضبي»، فبهذه المقالة الصحيحة والتجلي الصحيح، وعلمك إياها ذوقاً يصح على الحق خلافتك، وعليك خلافته وهو هو لا غيره، وأنت أنت لا غيرك، وهو أنت وأنت هو، ولا أنت غيره ولا هو أنت، ولا هو غيرك، وبها تعلم أولية الحق أنها سلبت الابتداء، والآخرية

سلبت الانتهاء، ويتم لك الظهور، ويتم له الظهور فيك، وما لم يتم لك الظهور فيه فليس لك من الخلافة إلا بقدر ما حصلت، فقيمة كل واحد ما كان يحسنه، وبهذا العلم تعرف مراتب البدلاء، والأقطاب، والأوتاد، والأفراد، وتعلم من أين صح تكليم الحق وكلامه، والحشر إليه والرجعى إليه، والمصير إليه، فإنه لا سبيل إلى وجود شيء من ذلك في دنيا ولا أخرى؛ إلا على هذا الأصل الذي جاءت به الشريعة، وما سوى ذلك فلا تطمع نفسك به، فإنه مما لا سبيل في دنيا ولا أخرى إلا على هذا الذي ذكرت لك، فهذا هو علم الألوهية، وهو علم اليقين الذي هو ثمرة معرفة نفسك، أعني الكون بأجمعه.

وما بعد هذا فهو عين اليقين، وهو علم الذات ومشاهدتها، لأنك بعده بحيث لا تشهد ولا تعقل معها كونًا من هذه النسب، معدومًا ولا موجودًا، مثبتًا ولا منفياً، بل تغني الآثار والأكوان، والعوالم والأسماء والرسوم، وهذا وقف على الوهب الإلهي والتجلي الذاتي، إذ لا نسبة بين الحادث والقديم غير الإمكان والوجوب، وهذا الشهود لا ينقل، ولا سبيل إلى عبارة عنه البتة، فلا تطمع نفسك بأن تلقاه في كتاب، فما هو ثم أصلاً، وما ذكر الذاكرون كلامًا إلا عن الإلهية، والإلهية هي العلم بالأسماء لا غير، وهو إثبات ذات غير مكيفة ولا معقولة، تنسب إليها صفات متعددة من جهة المحدثات، تسمى من حيث توجهها عليها إلهاً، وتسمى هذه النسبة بينهما ألوهية على ما قدمته لك مرارًا.

فالذات تشهد ولا تعقل، والإلهية تعقل ولا تشهد، وما يشهد لا ينقل، وما يعقل ينقل، وما في الكتب المنزلة إلا ذكر الألوهية فما دونها لا غير ذلك، فضلاً عن غير الكتب المنزلة، فلا تتعب نفسك في طلب ما لا تجده في كتاب، فليس عن ذلك عبارة أكثر من العجز عن درك الإدراك إدراك:

وكان ما كان مما لست أذكره      فظن خيرًا ولا تسأل عن الخبر

وقد نصحتك وهذا لسان الجهل في العلم، فهو آخر درجات القول ليس بعده درجة، وأما العلم في العلم فلسانه السكوت، فلا سبيل إلى النطق معه؛ إذ لا عبارة تسع ما هناك، ومن حاول ذلك لم يقع إلا على الخطأ الصريح، ومع الشهود فلا سبيل إلى

الإحاطة والإدراك من حيث الخلق، قال سبحانه (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ) [الأنعام: ١٠٣]، وأخبر ﷺ أنه سبحانه يتجلى في القيامة للعباد في الدار الآخرة، ويتعرف إليهم، ويقول: أنا ربكم فينكرون، ويقولون: نعوذ بالله منك، فلو عرفوه أنه الحق مع مشاهدتهم له لم ينكروه، ولم يتعوذوا منه، فالعلم لا يعطي الشهود أصلاً البتة، والشهود يعطي العلم.

وأما حق اليقين الذي هو بعد عين اليقين، فهو نسبة الألوهية للذات بعد مشاهدة الذات أيضاً لا قبلها، كما أشار إليه التنزيل بقوله - سبحانه وتعالى - (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ \* ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً... الآية) [الفجر: ٢٧، ٢٨]، فإن الجنة من الاجتنان الذي هو الستر، وهو الكون الذي هو أنت، فبك بطن عن الظهور، وبك ظهر فاستتر عن البطون، إلى غير ذلك مما نبهتك عليه، فإنك من حيث بطون وجودك في الكون الذي هو أبوك وأمك، وغيرهما من السموات والأرض، والخلق والأمر، المعبر عنه بالكنز في بعض المراتب، كنز في الكنز، ومنها صح على الكون بالنسبة إليك كنز، ومن حيث كونك عن الكون خلق، والكون من كونك عنه حق، وهو من كونه عن الحق خلق، فأنت الجدار على الكنز، وأنت دخلت نفسك به، ولكن لم تعلم أنك دخلت نفسك به حتى شاهدته رددت الأمانة إلى أهلها، أعني رددت التجلي والشهود إليه، فدخلت نفسك به على علم، فعرفت نفسك معرفة أخرى، فمعرفة فيك نفسك معرفته، ومعرفة معرفتك نفسك، فهذا أبلغ ما يمكن في تسهيل العبارة وإليه الإشارة، بقوله سبحانه (يَا أَهْلَ الْبَيْتِ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا) [الأحزاب: ١٣]، وهذا هو الفرق بين عين اليقين، وبين حق اليقين لا غير.

وأما حقيقة اليقين التي أشار إليها الرسول ﷺ بقوله: «إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك»، فهي إقامتك هذا الجدار الذي هو الجنة، الذي ستر الكنز بدخولك لها فانيًا عن إقامتك، ودخولك فناءً محضاً محققاً حتى لا ترى غيره، ولا تسمع إلا منه، ولا ترى يراه، ولا تسمع منه غيره، وتشهده بذلك كله يشهد ذاته بذاته، ويسمع ذاته بذاته، وأنت موجود فيه مفقود في الحقيقة، وهو لم يزل كذلك، وإنما غطاه الحجاب، فلما ارتفع الحجاب عُدت كأنك تراه ولا يراه غيره، فلذلك قال ﷺ: «اعبد الله كأنك

**تراه»** وذلك إذا كنت تراه، فقد أثبت نفسك وأثبتته رائياً، ومرائياً، فحجبت بثبوتك نصف المعرفة، وهذا حال عين اليقين، فإن الشهود فيه حاكم على الشاهد، فهذا معنى قولنا: أن المرتبة في ابتدائها تحكم على ذي المرتبة لأنك على الصورة، وأنت أحد المرأتين، وإن كان سبحانه يراك من حيث لا أنت، وأنت لا ترى فهذا حال الحجاب - نعوذ بالله - وهو وصف أهل الشمال، وإن كان يراك من حيث لا أنت مع أنك تراه برويته إياك، هذا هو الحق اليقين، فهو مرآة واحدة فيها رؤيتان، وفيه ابتداء السلوك في التحكم بالشهود الذي هو الحكم في المرتبة، وهي مرأتان في مرآة، وكمالها أن تراه بكأنك، فيكون هو الرائي من المرأتين، فقد كملت الرؤية، ولسان هذا المقام **«حب إلى من دنياكم ثلاث»** ولم يقل: أحببت لأنه يحب بحب، إذ هو مجمع المرأتين لأنه مجمع الحقائق ﷺ، ولذلك قال: **«فإن لم تكن تراه فإنه يراك»** هذا حال من هو مرآة الله.

وقد نبه على هذه الحالة العامة بألف من هذه الإشارة، وأدرج فيه الخاصة بقوله: **«إنما شرعت المشاعر وجعلت المناسك لإقامة ذكر الله»**، فذكره سبحانه هو عدم ذكر غيره حضوراً وشهوداً وتعقلاً، فأما تكرير الاسم في شعب الخواطر، فهو التذكر وهو اللسان لا غير، وإنما سُمي تجوراً لما يؤول إليه من الحضور، وقد شهد التنزيل بذلك **(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) [طه: ١٤]**، **(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى) [العنكبوت: ٤٥]**، فإنك إذا كنت خليفة في صلاتك علمت من القائل: (سمع الله لمن حمده) المجيب بـ (ربنا ولك الحمد)، فلهذا نقول: أن الرجل إذا كبر في صلاته لم يصل بعده أحد، وليس الرجل من إذا صلى صلت بعده الألف من الملائكة والناس، فقل الله ربي تفنى أعداءك بالاسم، ولا تقل ربي الله فيتمكن منك عدوك فافهم.

## فصل

فقد استبان لك مكرراً، إن كنت تفهم إن الخلافة هي الظهور بمراتب الوجود والإمكان، المعبر عنه بالألوهية في المرتبة الأولى، والخلافة في المرتبة الثانية، فإن الحق سبحانه قد عبر عنهما، أعني: هاتين الصفتين المتكررتين بفاعلية ومفعولية، باليدين تارة، وبالحرطين الذين هم كن تارة، وباليمين تارة، وعبر عنهما من حيث الحق

باليمينين، إذ لا جهة ولا تحيز، ومن حيث الخلق للانحياز والتقيد باليمين والشمال، فقال ﷺ: «كَلَّمَا يَدِي الرَّحْمَنِ يَمِينٍ» وقال سبحانه: (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) [المائدة: ٦٤]، وقال: (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ) [الواقعة: ٢٧]، ووصف حالهم بما يناسبهم من الإيمان واليمين الذي يقتضيه ونبه عليه بالسلام تارة وبالسدر المخضود أخرى وقال: (وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ) [الواقعة: ٤١]، ووصف حالهم بما يناسب، وما يقتضيه من صفات القهر المنبه عليه بالحميم والجحيم تارة، والسموم واليحموم أخرى، فإن سر الخلافة هو الكون، وقد وصف نفسه سبحانه بالكون وكون الكون، بهاتين اليمينين اللتين هما الكاف والنون، عقلاً وشرعاً وكشفاً عقلياً كان، أو وهمياً أو حسياً، فمن حيث الاتحاد هي يمين وكلمة، ومن حيث الانبساط إيمان وشمائل، وأيدي وكلمات وحروف، علواً وسفلاً، وبحسب اختلاف التجلي اختلفت أسماؤه، وهي هي لا غيرها، أعني: الألوهية، فأرواح هي الكلمات، وأكوان هي الآيات، لأنه قد تجلى بهما وجوباً وإمكاناً حقاً وخلقاً، فإذا ظهر بهما حقاً فمن صفة الرضا والغضب، وإذا ظهر بهما خلقاً فمن صفة الخوف والرجاء، وكذلك الجلال والجمال، وإذا ظهر حقاً فالهيبة، أو خلقاً فالأنس، وإذا ظهر حقاً خلقاً، أعني: الإنسان، فمن صفة الكمال الذي هو الخلافة التي هي الأمانة المعبر عنها بالسعة، وهي الجمال في الجلال، والجلال في الجمال (يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ) [الأعراف: ٥٤]، (يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) [الزمر: ٥].

فالألوهية مفردة أعني الخلافة فرقان، والخلافة قرآن، وتسهيل ذلك عليك أنك لا تجد شيئاً موجوداً إلا وجوده عن أصلين: هما اليمينان اللتان هما الحرفان، وهما الصفتان، وهم الإسمان، وهما النسبتان، وهما الصفة والموصوف ما شئت فقل، فالمراد عن إرادة ومريد، وبالإرادة تميز المراد عن المريد، وبالمريد تميز المراد عن الإرادة، وكذلك في المراد كل واحد من الثلاثة رابط فاصل، والمعلوم عن عالم وعلم تميز العلم المسمى عالمية عن العالم بالمعلوم، وكذلك كل واحد من الأخوين، والمقدور عن قدرة وقادر، فبهذا صح على الممكن الاقتدار فافهم واعتبر ذلك في المحسوسات تجده، فالمعطي عن معطٍ وعطاء، ولا يظهر العطاء ويتميز عن المعطي إلا به، والولد

عن والدين وولادة، والولادة عن ولد ووالدين، والوالد عن ولد وولادة، والمانع عن منع وممنوع، والغذاء عن غاذٍ ومتغذٍ، وكذلك المتغذي والغاذي، ثم انبسط ذلك في المحسوسات فانبسط بانبساط الحجاب، فتنوع لتنوع الأسماء بتنوع التسميات، فقيل نبات عن منبت ومنبت، وفي الظاهر عن ماء وأرض، ونار عن زند وزاند إلى غير ذلك، فاقنع بهذا القدر فهو متسع، وقد بالغت في فتح الباب لمن قدر له ولوجه.

واعتبر كيف بسط الله ذكر الأيدي مجموعة ومفردة ومثناة، ونسب هذه الكوائن كلها إليه تارة، ونفاها عنه أخرى، ونسب بعضها إليه تارة، ونفى البعض ونسبها إليه وإلى الخلق أخرى، فقال في الحجر الأسود: «يَمِينُ اللَّهِ»، وقال: (خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا) [يس: ٧١]، فجمع الأيدي لأن الأنعام في أسفل سافلين، وشرف آدم فقال: (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِإِيدِي) [ص: ٧٥]، فجمع له بين يديه لأنه في أحسن تكوين، وليس ذلك إلا للخلافة، فمن صحت له قدم الخلافة الإنسانية فهو في أحسن تقويم، ومن لم يصح له فيها شيء فهو المردود إلى أسفل سافلين، ومن كمل فيها فأجره غير ممنون، وقال سبحانه (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ) [الفتح: ١٠]، (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) [الفتح: ١٠]، (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)، (فَلَمْ تَقْتُلْهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ) [الأنفال: ١٧]، (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي) [الحجر: ٢٩]، (فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا) [التحريم: ١٢]، لتمام الجمعية إذ هو ختم الأدمية.

فإن المحمدية نشأة أخرى فهو ختم الختم، فما تمحضت غيبة الخلق عنه عن اختيار نفسه باستغراقه بالشهود الإلهي؛ بحيث لم يبق لصورته معنى غير الحق إلى نفسه؛ إذ هو المتصرف لا غير، وإن كانت الغيبة أيضاً عن النفس لشهود صفة من صفات الحق، التي هي أمره وطاعته، وكذلك من ذلك (فَلَمْ تَقْتُلْهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ) [الأنفال: ١٧]، وما لم يتمحض أضاف إليه ما هو إليه وإلى الخلق ما هو إليهم فقال سبحانه (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ) [التوبة: ١٤]، فأضاف القتال إليهم والتعذيب إليه لأنه بأمره، فإن الله لا يغفر أن يشرك به، وقد نبه سبحانه على ذلك بقوله (وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ) [البقرة: ٦١]، فإن الكون الذي هو الخلق من كونه خلقاً، أو قل مخلوقاً، أو مفعولاً ما شئت فقل، هو من هذه النسبة حجاب ظهور الحق من هذا

الوجه، غير الحق بتسمية أهل الحجاب الذين جعلوه وجعلوا أنفسهم غير الحق، فاعتبر الحق لهم ذلك، وخاطبهم بلسانهم المعتاد؛ لأن الكون الذي هو حق يعرف ذلك، ويستتره كما ستره الحق (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) [آل عمران: ٣١]، (سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ) [الأنعام: ١٣٩]، فإذا فهمت هذا انكشف لك سر التكليف، وسلامة الأطفال منه والبهائم مما كلفه المحتنون من نوع الإنسان، وإضافة فعل غير المختار إلى الله تعالى كالسما والأرض، فاعتبر ذلك.

ولنقرب هذا إلى فهم الضعيف أن يقال له: من كان الحق سمعه فسمع نفسه متكلمًا، فقد حصل للحق اسم السميع المتكلم، وهو المتكلم المسموع؛ إذ هو لسانه، وكذا إن سمع من الحق لسانه، وإن كان غير السامع صورة، وكذا إذا أُعطي من الحق يده وأخذ من الحق يده، وأخذ منه الحق المعطى الأخذ القابض الباسط إذ هو يده وهو أخذ الصداقات، وكذا إذا رأى نفسه نفسه، فإن لم يؤمن بأنه ظاهره وباطنه، فقل إذا رأى يده فهو الرائي المرئي إذ هو اليد والبصر وهو المجموع، إن أمنت بأنه الظاهر والباطن سواء كنت مشاهدًا، أو متأولًا، أو مؤمنًا على مراد القائلن فهو سبحانه لم يزل كذلك، فإنما المتجدد بهذا القرب الذي أنتج المحبة، وبهذه المحبة هذا الكشف والشهود ذوقًا، فرفع الحجاب؛ والحجاب أنت الذي أنت العبد الذي تعبد، فظهر أنك (كأنك تراه) ولا يراه غيرك، فزال (كأنك) فزال العباد لزال العبد، فرجع الأمر كله إليه، إذ لا يعبد غيره فهو العابد وهو المعبود، فعاد العبد فعادت العبادة التي هي رجوع أهل يثرب وهي الأمانة، والرجوع إليها بحفظها الذي هو إقامة الجدار، وذلك إذا ردها إلى أهلها، أي: رد التجلي إليه، فهو المتجلي والمتجلي له وفيه، وبه، ومنه، وعنه، ومعه، وإليه، فطلعت الشمس من مغربها، وهي أنت العين الحمئة من طين، فسد باب التوبة الذي هو من قبل المغرب مسيرة عرضه سبعون عامًا، إحدى مدتي آجال الأمة، فهو التواب لنفسه وعلى نفسه ليس غير، فالخلافة سارية إليك في العالم كله كما ترى وأنت غايتها، ولا أنت فهو غايتها، فمراتب ذلك بأنه سبحانه لا يغفر أن يُشرك به، فهو أهل التقوى وأهل المغفرة، والتقوى وصية الله لنا ولمن قبلنا، وهي من الوقاية، أي: تجعله وقايتك في المقام المحمود، وأنت وقايتك في المقام المذموم، ولا ذم إلا من حيث الكون

الذي هو أنت (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) [الأعلى: ١]، فإن الأبوال أصلها الماء لما استحالت في كونك، حُكِمَ عليها بالنجاسة، فإذا عادت إلى البحار صارت طهورًا، فأضف الفعل المحمود والفاعلية إليه، والمفعولية والفعل المذموم إليك، أو قل أضف الخالقية والتكوين إليه، والمخلوقية والكونية إليك، كيف شئت فقل، واغفره عند من غفره، فالغفر الستر، قال سبحانه: (قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ) [الجاثية: ١٤]، فإن فهمت هذا؛ فهمت معظم أسرار الخلافة وأسرار التكليف، وارتفاعها عن ارتفعت عنه، وأسرار البلاء فيمن ابتلي والله أعلم .

### فصل

قد أخبرتك أن الكون ينقسم إلى ظاهر وباطن، وقد سمى الله سبحانه الباطن بالأمر والظاهر بالخلق، فقال: (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) [الأعراف: ٥٤]، وقال: (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) [الإسراء: ٨٥]، فعالم الأمر هو عالم الغيب الذي هو الأسماء الذاتية، ويليه أمهات أسماء الألوهية وتوابعها.

واعلم أن بعض هذه الطائفة يسمى ما وجد بهذا العالم الباطن عالم القدرة، وما وجد بالعالم الظاهر عالم الحكمة، واعلم أن الله سبحانه خاطب الخلق على الوجه الذي هم عليه؛ من الميل إلى العالم الظاهر قصدًا للاعتدال، فغلب إضافة الربوبية إلى العالم الباطن، وجعل كل ما كان مقرَّبًا منه قربة إليه، وما كان وجوده به أشرف، وأضافه إلى نفسه وغلب إضافة العبودية والمخلوقية والمفعولية إلى الظاهر، وما اشتركا فيه أضافه إلى الأغلب أو إلى الجمعية، فاعتبر ذلك واستقره شرعًا تجده كذلك، لاسيما إذا عدم الاختيار، فأضاف إنزال المطر إليه، وقال ﷺ: «أَنَّهُ حَدِيثٌ عَهْدٌ بِرَبِّهِ»، وأضاف خلق آدم، وجنة عدن، والناقة، وكتابة التوراة إليه، وأخبر أنه تولى هذه الأربعة، وجعل الصوم قربة إليه، وقال: «فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ» كل ذلك استدعاء إلى العدل بالميل إلى الباطن؛ لغلبة الميل الآن إلى الظاهر، إذ الأمر دور بينهما حجاب عن الآخر، وجاذب له إليه، فمن حيث هذين العالمين وصف الحق نفسه بالحجب النورية،



التي هي الأرواح، والحجب الظلمانية التي هي الأجسام، فكل واحد منهما حجاب عن الآخر، فافهم.

والظهور والبطون دور بينهما أعني: اللطيف والكثيف، فإذا اعتبرتهما خلقاً وأمرًا، ولطيفًا وكثيفًا، ويدين وحجابين، فمن إضافتهما إلى الألوهية التي هي الوجه الأعم الذي هو الكون، أعني: الأسماء التي هي سلسلة الترتيب والوسائط المتكثرة، فهذا الوجه هو ظاهر الخلافة، الذي منه يكثر الوجود، وإذا اعتبرتهما حقًا أعني: من الوجه الخاص الذي نبهتك عليه، فبذكره زال هو، وهما، وهم، وزالت الكثرة واتحد الكل، من حيث أن الساري في الكل هو الذات؛ لتعين الأسماء من حيث عدم التغير بين الاسم والمسمى، والصفة والموصوف، وارتفعت الوسائط، فهذا باطن الخلافة، وبهذا الوجه صح على التنزيل أنه غير مخلوق من ارتفاع الوسائط، ومن الإضافة إلى الاسم، صح عليه التكثر بالحروف والآي، والصور والأجزاء والتبعيض، فافهم ما نبهتك له من الإضافة إلى الاسم، الذي هو عين المسمى، ولذلك تكثر في وحدته، ولم يوصف بالمخلوقية مع التكثر؛ لأن القول والكلام والحكم والوصف لله، من حيث الذات، أعني: من حيث هذا الاسم هو المسمى، سواء كان ظهوره ذلك بالباطن أو بالظاهر، فإن كلاً من الظاهر والباطن، إما أن يكون ظهوره بواسطة أو بلا واسطة، أعني: أن يضاف إلى الذات أو إلى الألوهية، فما أضيف إلى الذات فهو واحد، وما أضيف إلى الاسم، فإما من الخلق ولا من الأمر فافهم، ولذلك قال في عيسى بن مريم: **(قَوْلَ الْحَقِّ)** [مريم: ٣٤] وكلمته من حيث عدم اعتبار واسطة جبريل، لعدم تأثير وساطته بغنائه فأخذه هذه الكلمة التي ألقاها إلى مريم هو أخذه ذاته من الحق لا غير ذلك، فهو قول قبل النفخ، وكلمة بعد النفخ، وكلمة بعد الإلقاء، ولذلك أضاف القول إلى الحق، والكلمة إلى غيب الذات، في قوله: روح الله وكلمته، وليس كذلك اعتبار عيسى روح الله، فإن اعتباره روحًا أيضًا لجبريل بلا واسطة جبريل، ومريم تمثل لها بشرًا سويًا، ولذلك إضافة إلى الاسم الجامع فإن جبريل أخذه من الحق كما أخذ حقيقته، ثم هو كمال روحيته الألوهية كما قدمناه، وليس كذلك مريم، فإذا تمثل جبريل للنبي ﷺ فأقرأه القرآن سمع من الله بواسطة، وإذا نزل به على قلبه لا بالتمثل سمعناه من الله

بلا واسطة، إذ النبي ﷺ قد غاب عن اختياره وشعوره، كما كان يوصف من أحواله، والحق لسانه وجنانه، وكذلك جبريل في التمثيل، فإن كل موجود مطلقاً له الأخذ عن الله سبحانه بواسطة وبلا واسطة، سواء علم بذلك أم لا، إلا القلم الأعلى فإنهم يأخذون عن الله بلا واسطة، ونسبة الشرف والتميز عبارة عن زوال الواسطة جملة أو قلتها، وغلبة الوجدانية عليه، ونسبة المهانة والردالة بانسداد هذا الباب، والتكثر من حيث الخلق لا من حيث الحق، وبغلبة الوسائط وتكثرها، وقلة الوجدانية، فالوجه الأول: هو الرفع والارتقاء إلى الله، والتقريب منه، وهو أحسن تقويم في حق الإنسان، وهو العلم بالمكانة لا بالمكان، وقد يجتمع الارتفاع بالمكان والمكانة بنسبة ما، والوجه الثاني: هو الهبوط والنزول والإكباب على الوجه، والرد إلى أسفل سافلين، ومنه الذبذبة أيضاً، فالنقص والكمال للإنسان في الجانبين بحسب القرب منهما والبعد، ثم اعتبار الكمال المطلق الإنساني لكمال الاتصاف بالوجهين، أعني: بالظهور بحقائق الصفات الإلهية الوجودية في حقائق الصفات الكونية على الكشف، فلا تزال حقيقته في خليقه حاكمة على خليقته شهوداً محققاً.

ثم هذا الكمال المطلق متفاوت بين الأنبياء والأولياء من الأناسي، فالمستغرق له في كل عصر وزمان بالذوات والمرتبة، والعلم والحال والفعل، في جميع الأسماء والصفات الإلهية، والحقائق الكونية، والأحكام الكلية والجزئية، الذي هو من حيث كونه برزخ البرازخ، الجامع بين الغيب الذاتي المطلق الواجب، وبين أحكامه الألوهية الكونية اللامكانية، هو خليفة الله، وخليفة الخلفاء، المطلق في عصره، الذي يعبر عنه في هذا الزمان، بالقطب، وفي الزمان الأول بالنبي، ولمن دونه بقدره من الخلافة المنبه عليها بقوله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» ويقول: «رحمة الله على خلفائي».

فبهذا الاعتبار قلنا: أن الإنسان الصوري المتصف بهذه الصفة كل الوجود مطلقاً، وبه صح له الارتقاء إلى الله ﷻ في جميع المقامات، والأخذ منه بواسطة وبلا واسطة، وليس كذلك غيره من الموجودات، فإن لها الارتقاء في مقاماتها، والأخذ من الله سبحانه في مقاماتهم بواسطة وبلا واسطة، لا أنهم يتعدون مقاماتهم المعلومة؛ وإنما

تم ذلك للإنسان من حيث أنه كل الوجود على ما أخبرتك، فالقلم الأعلى والأدنى وجبريل، وميكائيل، وإسرافيل وغيره من قواه، ولذلك كنا شهداء على الناس، إذ العلماء منا؛ وهم الأقطاب الذين ذكرناهم فمن دونهم، كأنبيا بني إسرائيل، وأهل كل زمان بالنسبة إلى علمائهم كالشيخ الواحد، والقطب روح الكل، ومعول الشهادة على القلوب، والرسول عليه الصلاة والسلام شهيد علينا، وهو كل الوجود المتقدم والمتأخر، فنحن شهداء على أنفسنا، إذ ليس المتقدم والمتأخر غيره، فلذلك إليه - سبحانه وتعالى - إيابنا، وعليه حسابنا.

وسأسوق من الدلائل الشرعية على هذا الأصل ما يزيده يقيناً مع ما سلف، ولما كان ﷺ كذلك نبيه على ذلك، فأما في حق الأمة فلو لم يكن فيه إلا إخباره أن عمر محدث وأن في الأمة محدثين لكفانا، فإن المحادثة معينة، وقد أخبرنا ﷺ عنه سبحانه بأنه أولنا وآخرنا، وظاهرنا وباطننا، وأسماعنا وأبصارنا، إلى ما في ذلك من الأحاديث، فأما النبي ﷺ فكان يروى عن جبريل غالباً، وعن جبريل، وعن ميكائيل، عن إسرافيل، عن الله، وعن جبريل، عن الله، وعن جبريل، عن الله، وأتاني ربي، وأخبرني ربي، وأنبأني اللطيف الخبير، ويقول: لي وقت لا يسعني فيه غير ربي» وذلك أن جبريل عليه السلام يقع أيضاً على الوجود مطلقاً دون واسطة، كما يقع اسم الإنسان على الوجود مطلقاً دون واسطة بالنظر إلى الحقيقة المحمدية وما حوته، وذلك أن للحقيقة المحمدية ظاهراً وباطناً فظاهرها جميع الظاهر، وباطنها جميع الباطن، واختص من بينهما الشبح المحمدي بهذا الاسم، لصورته بالنسبة إلى حقيقته كما أسلفناه.

وللحقيقة الجبرائيلية ظاهراً وباطناً، فباطنها جميع الباطن، وظاهرها جميع الظاهر، واختص من بينهما روح طبيعة عالم العناصر، وما ظهر عنها من السموات السبع، وما اشتملت عليه من المولدات باسم جبريل، كما اختص الشبح المحمدي باسم محمد، وله أعني جبريل من حيث حقيقته الجبرائيلية ظاهر وباطن، كما قلناه فظاهره الملائكة على الإطلاق، وباطنه الروحية على الإطلاق، فملائكيته تشتمل على الكثافة

وهو ظاهر السموات والأرض، وفيها النيران وخُزَانِها، وروحيتُه تشتمل على اللطافة، وفيها الجنة ورضوانها، فباطنه قلم، وظاهره لوح.

ثم القلم الذي هو باطنه ثلاثة أصناف من حيث التسمية: فالقلم الأعلى روح القدس، وهو ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «صرت إلى مستوى أسمع فيه صريف الأقلام»، ونبه عليه بساق العرش حيث قال: «فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفق، فأجد موسى أخذًا بساق العرش» وهو اليد التي فوق الأيدي، والقلم الثاني: روح الله، والقلم الذي يليه الروح الأمين قال سبحانه: (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) [القلم: ١].

واللوح ثلاثة أصناف وهو إسرافيل الذي هو جد الأرواح، ومبتدأ الحس، وميكائيل الذي هو فتح الأشكال، والاتصال والانفصال، والإصعاد والإنزال، وعزرائيل الذي هو جد الأعمار، ومفصل الأنوار، ولوح المحو والإثبات، وحقيقة المحيا والممات، بأنواع التمثيل والتشكيل، والتحساس والتخييل، وهو المخصوص بالاسم الجبرائيلي؛ لأنه الخيال المطلق، فهو كرسي عزرائيل، ولذلك اختُص محمد ﷺ من الملائكة بجبريل، فإن الوجود على ما بينت لك في كل موجود بنصفين، نصفه محمد عليه الصلاة والسلام، ونصفه جبريل، فجبريل ظاهر وباطن، ومحمد ظاهر وباطن، فظاهره باطن ظاهر محمد عليه الصلاة والسلام، وهو الذي يطلق عليه الاختصاص باسم جبريل، وهو عالم التمثيل والتخييل، ورابطة التوصيل والتفصيل، ومشكاة التنزيل، فلما اتصل ظاهر محمد بباطنه الذي هو ظاهر جبريل؛ رآه بالأفق المبين، فهي الرؤية الأولى في صورته الحجابية الظاهرة، ولما اتصل بباطنه بباطنه؛ رآه الأفق الأعلى، الذي هو روح القدس المعبر عنه الساق - جل ربنا - وهي الرؤية الثانية، ودامت الرؤية الثانية له عليه الصلاة والسلام، ولم يبق التمثيل والتشكيل، والتفصيل والتوصيل، من بعد إلا لأتمته، فلذلك قال: أنه لا ينزل بعده إلى الأرض إلا مرة واحدة - يعني - بهذا النصف الحجابي، فإنهم صورته المتأخرة بظاهر جبريل اتصلت بصورته ﷺ المتقدمة، التي كان عليها التنزيل، فيتم له الرؤية الثانية بالرؤية الأولى، بالمناسبة التي هي الشفاعة المحققة فافهم.

فلهذا أخبر ﷺ: أنه لا يدخل الجنة إلا بعد أن لا يبقى من أمته أحد إلا دخل الجنة؛ لأن دخولهم دخوله، لأنهم بين الصورتين المتقدمة والمتأخرة، ألا ترى أول من يحرك حلقة الجنان عليه الصلاة والسلام، فبهذا يُعرف أن الجنة محرمة على النبيين حتى يدخلها هو وأمته عليه الصلاة والسلام، ويُعرف ما أشار إليه ﷺ من عموم البركات عند ظهور الإمام المهدي، حتى يكلم الرجل عذبة سوطه وشارك نعله وفخذه بما عمله أهله من بعده، وتفتح القسطنطينية بغير سلاح، إلى سائر ما ذكر ﷺ، لعموم انبساط اللطيف على الكثيف، فتكون لهم سنة ما، من سنن القيامة التي عم فيها النداء، كما هو اليوم للغرباء من الأمة الأفراد، وقد نبه الرسول على ذلك بأحاديث كثيرة، ونبه عليه التنزيل العزيز، فمن ذلك قوله ﷺ فيما رواه أنس بن مالك: «بيننا أنا قاعد إذ جاء جبريل ﷺ فوكز بين كتفي، ففقت إلى شجرة فيها مثل وكري الطائر، فقعد في إحداهما، وقعدت في الآخر، فسمتُ وارتفعتُ حتى سدت الخافقين، وأنا [أفتل] طرفي، لو شئت أن أمس السماء لمسست، فالتفتُ، فإذا جبريل ﷺ كأنه جلس لا طي، فعرفت فضل علمه بالله تعالى على علمي»، فهذا العلم دون الإيمان الذي نذكره بعد.

وياك والإنكار، وهذه هي الرؤية الأولى، ولذلك بقي جبريل ﷺ لا طي لم يُغش عليه، وقوله: (فعرفت فضل علمه بالله تعالى على علمي) يشير إلى اتحاده بجبريل على التمام ﷺ، وتحققه بالحقيقة الجبرائيلية، فصار في علمه ما في علم جبريل، مما كان متميزاً عليه به.

وفي رواية أخرى عنه ﷺ قال: «لما أُسري بي، كنت أنا في شجرة، فغشينا من أمر الله ما غشينا، فخر جبريل مغشياً عليه، وثبت على أمري، فعرفت فضل إيمان جبريل على إيماني»، فغشيان جبريل أيضاً هو اتحاده به عليهما الصلاة والسلام من حيث الباطن، فذهبت الحقيقة الجبرائيلية من حيث صورته السابقة ﷺ، وبقيت الحقيقة المحمدية منبسطة متحدة بالحقائق الجبرائيلية، ولأجل بقاء جبريل لتكميل الصورة المحمدية اللاحقة عليه ﷺ أخبر ﷺ بغشيان جبريل، وفي كمال الصورة المحمدية اللاحقة حق الكمال، واتحاده في الصورة الأدمية المحمدية اللاحقة يكون موته منها.

فإذا فهمت ما ذكرته لك علمت أن الوجود كله هو الحقيقة المحمدية، وأن النزول منها إليها، وبها عليها، وأن الحقيقة المحمدية في كل شيء لها وجهان: وجه محمدي، ووجه أحمددي.

فالمحمدي علمي جبرائيلي، والأحمددي إيماني روعي أمي، وإن الجنة فيما بين هذين الوجهين مائة درجة، وإن التنزيل للوجه المحمدي، والتجلي للوجه الأحمددي، وإن آدم وكافة النبيين عليهم الصلاة والسلام لا يدخلون الجنة؛ إلا بدخول محمد عليه الصلاة والسلام، وهو لا يدخل إلا بدخول أمته، فهو الكل عليه الصلاة والسلام، فبهذا يتضح لك أنه لا يدخلها حتى تدخلها أمته، أمانة وأنه أول من يحرك حلقها، وأنها محرمة على النبيين حتى يدخلها، مع ما علمت من قوله سبحانه في الشهداء أنهم (عند ربهم يُرزقون) [آل عمران: ١٦٩]، وما جاء في الأخبار من أن الأنبياء في الجنان، وإن كثيراً من الصحابة أدخلوا الجنة، وتزوجوا من الحور فتتقظ.

واعلم أن كل خليفة ممن تقدم وتأخر، من آدم إلى آخر الخلفاء؛ إن بلغ هذه الخلافة الكلية التي ذكرتها لك، فهو خليفة الله الرحمن، من حيث هو خليفة رسول الله ﷺ الذي هو الجليس على الحقيقة على العرش، الحاكم بين سبحانه وبين خلقه، وليس خليفة الله سبحانه من حيث اسمه الرحمن حقيقة؛ إلا محمد ﷺ وكلهم خلفاء الله سبحانه من حيث هم خلفاء المهدي ﷺ، الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرايات السود تقبل من أرض خراسان فأتوها ولو حبوا، فإن فيها خليفة الله المهدي، فإنه به يكشف عن ساق»، فهو الإمام الخاتم للولاية، وآدم بين الماء والطين، وغيره ما كان ولياً إلا بعد أن تولاه الله سبحانه بظهور الولاية فيه، كما أن النبي هو النبي، وآدم بين الماء والطين، وغيره ليس كذلك حتى نبأه الله سبحانه، فهو عليه الصلاة والسلام لم يزل خليل الرحمن، حتى تمكن للخلة الكاملة بغير سير، فكان خليل الرحمن محضاً من حيث هو خليل الله تقريباً، ثم انتقل قبل موته ﷺ إلى خلة الله، فهو خليل الله محضاً من حيث هو حبيب الله محضاً، وأوتي مفاتيح خزائن الأرض والسماء، وهنا نفترض عنان البيان، بأفصح من هذا اللسان، في هذا الزمان، والله أعلم.

وحسبنا الله ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير، وصلى الله على سيدنا محمد البشير النذير، السراج المنير، وعلى آله، وأصحابه، وأشياعه، وأتباعه، ومحبيه، وأحبابه، وعلينا معهم بالتبعية، وإن كنا مقصرين، والحمد لله رب العالمين، آمين، آمين، آمين.

قد وقع الإتمام من كتابة هذا الكتاب العُجاب، التي لا يكاد أن يوجد بين الأمة، على يد (عبد الفتاح ابن المرحوم الشيخ عبد المتعال) من أضعف الطلبة، أحسن الله له ولوالديه ولمشايعه، ولمن دعا لهم بخير حالهم، برفعة الدارين، بحرمة حبيبه المرسل للنقلين، وثبت أقدامهم على شريعته، ونول أمرهم بذاته، وأهداهم إلى صراطه المستقيم، وصلى الله على من نزل في حقه (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) [القلم: ٤]، وعلى آله وأصحابه ما دام فوق والأديم، في ستة عشر من ربيع الأول العظيم لسنة (١٣٢٢) هجرية اثنين وعشرين وثلثمائة وألف، من هجرة النبي الكريم صلى الله عليه وآله وأصحابه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.